المواجهة

قصة حياتى



لأستاذ الجيل
احمد لطفي السيد

التنوير

المواجهة

قصة حياتى

لأستاذ الجيل

احمد لطفي السيد

التنوير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الفصل الأول

نشأتى الأولى

نشأت في أسرة مصرية صـــميمة لا تعـــرف لها الا الوطن المصرى ، ولا تعتز الا بالمصرية ، ولا تنتمى الا الى مصر ·· ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منـذ أقدم العصـــور ·· وله من الثروة الطبيعيـــة والشرف القـــديم ما يكفـــل له الرقى والمجد ·

وقد ولدت فى ١٥ يناير ســـنة ١٨٧٢ م بقرية « برقين » من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية · وهى قرية صغيرة كان تعدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس · ويشـــاع بين أهل الريف أن اسمها « النزلة » وربما سميت باسم « برقين » الفلسطينية · وقد تضاعف سكانها ، فأصبح عددهم الآن نحـو ألفى نفس · وهـم زراع ماهرون ، مشهورون بالجـد والنشاط والاسـتقامة ، وقـد اعتادوا أن ينطقوا القاف « جافا » ، والجيم جيما معطشة كسائر أهـالى مركز الســـنبلاوين ، وما زالت هـذه اللهجـة تغلب على فى حـــديثى ·

وكان والدى « السيد باشا أبو علي » عمـدة هذه القـرية ، كوالده « على أبو سيد أحمد » · وقد كان يجيـــد حفظ القـرآن الكريم كله · وعرف بشـخصيته المهيبة ، وقـوة شكيمته ، وعدالته فى معاملته ، وعطفه على أهل قريته وغيرهم · وأذكر أنه ما قسـا يوما على ، ولا وجـه الى كلمـة نابية أو عبـــارة تؤلم نفسى ، بل

كان ـ طيب الله ثراه ـ عطوفا حكيما فى تربية أبنائه ، يعنى بالقدرة الحسنة ، وحسن التوجيه والارشاد ٠

ولما بلغت الرابعة من عمرى ، ادخلنى كتاب القرية ، وكانت صاحبته سيدة تدعى « الشيخة فاطمة » ٠ فمكثت فيه ست سنوات تعلمت فيها القراءة والكتابة ، وحفظت القرآن كله ، وكنت أجلس مع زملائى على الحصير ، ونصنع الحبر بأيدينا ٠ والى هذه السيدة يرجع فضل تنشئتى الأولى فى تلك السنين ٠

ضرب العمد ٠٠ والأعيان :

وقد كنت فى العاشرة حينما أتممت حفظ القرآن فى هذا الكتاب ، فاشترى لى والدى « مهرة » من بادية الشام لم تألف رؤية قطار السكة الحديدية ٠ فكنت أركبها للنزهة ولقضاء بعض الأعمال٠ وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسسنى مكروه ٠ وذات يوم امتطيت المهرة وذهبت الى عزبة لنا فى طرانيس العرب» ٠ وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى ، فسرت بها على طريق السكة الحديدية ٠٠ وبينما أنا سائر بها ، اذ فاجأنى القطار فوثبت من فوقها وتركتها وحدها فجرت مسرعة حتى عادت الى برقين ٠ فذعر أهلى ، وهاجت القرية ، وظن الجميع انى أصبت بمكروه ٠ وكنت وقتئذ وحيد والدى ، فزاد ذلك من اهتمامهم وقلقهم ٠ وما كاد القطار يقترب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض فاطمأن بالهم . ثم أخبرهم السائق بما فعلت ، فبعثوا الى بحمار عدت عليه الى بلدتى ٠ غير انى خشيت أن يعاقبنى والدى ، فهربت خوفا من « علقة » تصيبنى ٠ وجاء رجل من أهل القرية يدعى « عوض بدران » يهنئه بسلامتى ويقول له : « بركة عيشك يا ابو على » ٠ وهو يعنى « الحمد لله على السلامة » !

وهىء بى الى والـدى وأنا خائف أترقب ، ولكنه ـ كعـادته معى رحمه الله ـ ربت على كتفى قائلا : « لا تخالف امرى يا ولدى، ولا تسر مرة أخرى على السكة الحـديد » ٠ فأثر ذلك فى نفسى ، وازددت اعجابا به وحبا له ٠

وعلى ذكر « العلقة » اذكـر ان الضرب فى ذلك الزمان كان مباحا ، حتى ضرب العمدة والأعيان ؛ وكان هذا بعض ما يحـدث فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد ٠٠ وقد رأيت بنفسى غير مرة ، اذ كان لوالدى صديق يدعى أحمـد كامل بك ، وكان مفتش « تفتيش شـاوى » ٠ فكنت ـ وأنا بمدرسة المنصورة ـ اذهب الى بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشا ، والبيك المفتش قاعدا فى صدره وقد وقف اثنان من « القواسة » يحملان الكرباج و « الفلقة » لضرب العمـد الذين يتأخر أهالى قراهم فى دفـع الايجـار ٠ وكانت هذه طريقتهم فى ذلك الحين ٠٠ فأنظر كيف كانت الحال بالأمس ، وكيف هى اليوم ؟

نوبار باشـا : مسـلم !

بعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم رغب والدى فى أن يبعثنى للدراسة فى الأزهر ، وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا ابراهيم باشا أدهم ـ مدير الدقهلية سابقا ـ فدخلت لتحيته ، فسأل والدى الى أين يبعث بى للدراسة ، فأجاب : « الى الأزهر الشريف ان شاء الله » ٠٠ فأشار عليه أن يبعث بى الى مدرسة المنصـورة الابتدائية ، وكانت المدرسـة الحكـومية الوحيـدة فى الدقهليـة كلها ٠ وقـد عين المرحـوم أمين سامى باشا ناظرا لهـا ٠ وكـان معـروفا بالـدقة والنظـام والشـدة وعدم التسـامح فى أى تقصير يبـدو من أحـد التـلاميذ ، ومع ذلك فقـد كنا نحبه ونحترمه ونشعر بأبوته الرحيمة ٠٠ وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت

بالسنة الثانية بامتحان ، لأني كنت عـدا حفظي للقـرآن الكريم ـ اعرف قواعـد الحسـاب الأربعة ، و « سورة الفـدان » من صراف بلدنا « المعـلم حنين » وكان يلبس جبـة وقفطانا ٠

وأذكر على سبيل الفكاهة أن أحـدهم سأله يوما عن رئيس الوزارة نوبار باشا ، فقال له : « قـول لي يا معـلم حنين ٠٠ نوبار باشا مسـلم ؟ » ٠

فأجـابه خبثا أو بسلامة نية : « نعـم ٠٠ مسـلم موحـد بالله » !!

العدس والفـول ٠٠ فقط !

وكانت سـنة ١٨٨٢ م حينما التحقت بمدرسـة المنصـورة الابتدائية ، ولما اختلطت بزملائي التلاميذ شـعرت بعـد أيام بشيء من القلق ، لأنهم كانوا يضـحكون مني حينما انطق القاف جـافا كأهل بلدتي ! ٠٠ هذا الى أن الضرب والحبس في « الزنزانة » كانا من أنواع العقاب في هذه المدرسة ، وقد رأيت في الأيام الأولى تلميذا وضعت رجلاه في الحديد لأنه ارتكب ذنبا ٠ وكانت روح الجنـدية هي السائدة على نظام المدارس في ذلك الحين ٠٠ وكنا نخـرج كل يوم جمعة « طوابير » نطوف في شوارع المدينة ثم نعود الى عنابرنا ٠٠ وكانت عيشة المدرسة عيشـة شظف وخشـونة ٠ وقـد كانوا في وجبة الفطور يقدمون لكل تلميـذ رغيفا فقط ، وعليه أن يشتري من جيبه الخاص ما يأتدم به من جبن أو حـلاوة ٠ وكان العـدس أو الفول هو وجبة الغداء والعشـاء ٠ وفي بعض أيام الأسـبوع يقدمون لنا شيئا من اللحم والفاكهة ٠

وجاء والدي كعـادته لزيارتي يوم الجمعة ، فأبديت له أسباب تعبي وضيقي من هذه المدرسة ، وقلت : « انني غير مبسوط : وأخشى

أن أنسى فيها القرآن الكريم فيعاقبنى الله بالنسيان ، وقد قال تعالى (وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) ٠٠٠ » فابتسم رحمه الله وقال لى : « وأنت تنسى القرآن ليه ؟ ٠ اقرأ كل يـوم جزءا منه وأنت لا تنساه ، وخليك فى المدرسة » ٠ فاســـتمعت لنصيحة والدى ، ومكثت بالمدرسة ٠ وقد حبب الى البقـاء فيها أستاذ اللغة العربية « سيد أفندى محمد » ، وكان مشهورا بالقدرة والتفوق فى تربيته وتعليمه ٠ وكان تلاميذه أقوى زملائهم فى اللغة العـربية ، وعلى يديه نبغ كثيرون ٠

من المنصورة ٠٠ الى الخديوية !

أمضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وأتممت تعليمى الابتدائى فى سنة ١٨٨٥ م ٠ ولم تكن شهادة الابتـدائية ولا البكالوريا قد وجـــدتا بعد ، بل كان الانتقـال من مرحلة الى أخـرى بالنجاح فى امتحـان المدرسة ٠ وكان بمدرسة المنصـورة فرقة تجهيزية واحدة فألغيت فى ذلك العام ، واضطررت للســـفر الى مصر لالتحق بالمدرسة الخديوية ٠

ولقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصحبة صديقى وأخى عبد العزيز فهمى ، من أول يوم التقيت به فى عنبر المدرسة ٠ وذلك فى مناقشة أثيرت بيننا وبين بعض الطلبة فى النحـو ، فاتفق رايه ورأيى ضد الآخرين ، ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين ، ولا أذكر أن أحدنا قصر فى حق صديقه أو قال عنـه ما يسوؤه ، أو وجه اليـه كلمة تؤلمه ، ولو على سبيل المزاح !

ولما انتظمنا فى المدرسة ، رتبونا بالطول ، فقصـار القـــامة فى السنة الأولى ، والأطول منهم فى السنة الثانية ٠٠ وهكذا ٠ وكان وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقـــوب باشا أرتين وناظر المدرسة صادق بك شنن ٠ وكان هذا النـــاظر

معروفا بحبه لأهل البيت ، واذا وبخ أحدا قال له : « يا يزيد ! »
وقد عز على صديقى عبد العــزيز فهمى باشا وقد أمضى سنة فى تجهيزية مدرسة طنطا ـ أن يكون تلميذا فى السنة الأولى ، فاحتج على هذا الوضـــع ، فقبل احتجاجه بصعوبة ونقـــل الى السنة الثانية • ولما لم تكن شهادة البكالوريا قد وجدت فى ذلك الحين ، فقد شاء عبد العزيز فهمى وهو فى السنة الثالثة أن ينتقل الى مدرســة الحقوق ، فذاكر فى الاجازة لامتحان القبول بها ونجح • أما أنا فبقيت فى الخديوية الى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ م وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعــام •

عصر « الفتوات » !

وفى مدرسة الخديوية عرفت عيشــة الترف بالنسبة لمدرســة المنصورة ، فكنا نأكل بيضا ولحما وحلوا وفاكهة كل يوم • ولم تكن نفقاتها تزيد على نفقات مدرسة المنصورة • وكانت فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز ، هى ومدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف • وكان طلبة المهنـدسخانة يختلفون عنا بزيهم العســكرى الكامل ، ويحملون الى جانبهم سيوفا ، فكانوا يشيعون بمنظـرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الآخرين وبخاصة الغـــرباء • وكان مما يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان • فقد كان فى كل حارة عصابة على رأسها « فتوة » ••• وكثيرا ما كانت تحــدث معارك دامية بين هذه العصابات ••• وقد امتدت عدوى الفتوة إلى الطلبة أنفسهم حتى ظهر بيننا طالب « فتوة » يدعى « منصـــور » كان يعلم زملائه « التحطيب » • ولهذا كنت أوثر البقاء فى المدرسة أيــام العطلة الأسبوعية • وقد مكثت فى أول عهـــدى بالقـــاهرة ثلاثة أشهر لا أخرج من الخديوية ، قرأت فيها كتاب « أصل الانسان » لداروين ، الذى ترجمه المرحوم « شبلى شميل » • وحفظت كثيرا من المعلقات وأشعار بعض كبار الشعراء ، وكان من مدرسى اللغة

العربية في هذه المدرسة : الشيخ حسين والى ، والشيخ محمـــد حسنين البولاقى والد المرحوم أحمد حسنين باشا • وكنا وقتئذ نقرأ كتابا مطولا فى النحـــو لمؤلف يدعى الشيخ محمود العـالم •

وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شهر اختبـارا لتـلامذتها ، فرغب تلامذة البكالوريا أن تعفيهم المدرسة من الاختبارات الشهرية لينصرفوا الى المذاكرة للامتحان العام ، وأجمع رأيهم عـلى أن يطلبوا الى وزير المعـــارف على باشا مبـــارك اعفـاءهم منها ، واختارونى للذهاب لمقابلته ، فذهبت اليه ، وكان من عادته أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة فى حـــاجة يريدها ، ولا يجيبه الى حاجته الا اذا أجابه اجابة صحيحة فيمـا يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية • فلما مثلت بين يديه طلب منى أن أقف أمام السبورة لابرهن على النظرية الهندســـية التى حاصلها « أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجمـوع مربعى الضلعين الآخرين » • فأثبتها أمامه ، فأجابنى الى الرغبة التى أوفدنى اليه زملائى من أجلها • وقد كان رحمه الله أبا للتلاميذ ، محبا لهم ، عطوفا عليهـم • وكثيرا ما كان يختلط بهـم فى وقت الفراغ ، ويفسح لهم منزله للزيارة • وكان منزله فى الحلميـــة الجـــديدة بشـــارع « نور الظـلام » مقصـــدا لأهـل العـــلم وطلابه •

الى مدرسة الحقـوق

وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا ، فلم أكن من المتقدمين ولا من المتأخـرين • على أنى كنت متفـــوقا فى العـــلوم العربية والرياضيات حتى لفت ذلك صابر باشـا صبرى ، وأحمـــد كمـال بك ، فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا ، فنصحانى أن أدخل المهندسخانة ، فأجبتهما الى ذلك ، غير انى قرأت فى الاجازة

أن المهندسخانة تقبل ساقطى البكالوريا فلم أجد من كرامتى أن ألتحق بهذه المدرسة · وتغلب فى نفسى نزق الشباب والعزة الكاذبة على المريد أن يكون حياله كالجثة بين يدى مغسلها يقلبها كيفما شاء · حبى للرياضيات ، فقلت لأبى : « أنا لا أرغب فى المهندسخانة ، ولا أعرف أية مدرسة توافقنى ، وأجدنى فى حيرة من ذلك » ·· فقال والدى : « علينا بالقرعة » · فأجريناها فخرجت مرتين على مدرسة الحقوق !

التحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ م · وكانت المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية حقوق » و « كلية آداب » معا ··· فقد كان الطلبة يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية علوما أدبية كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى ، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة ، والمنطق · وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات · وكان وكيلها عمر لطفى بك ، وكان يدرس لنا قانون العقوبات ومن أساتذتها مسيو تستو مدرس القانون المدنى والأستاذ شارل ولوزينا والشيخ حسونة النواوى الذى تولى بعد ذلك مشيخة الأزهر ، وحفنى ناصف بك وسلطان بك محمد · وكنت فى ذلك الحين أسكن فى حارة (عمر شاه) التى يسكن بها الشيخ حسونة النواوى ، وكنت أتردد على منزله ، وكثيرا ما يبعث الى لأقرأ له درس الفقه الذى كان يلقيه فى الأزهر فى بكرة الغد ·

وفى مدرسة الحقوق عرفنى الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل ، وكانا مع الشيخ عبد الكريم سليمان فى لجنة امتحان العلوم العربية ، واذكر أنه فى لجنة امتحان السنة الثالثة طلب منا أن نكتب فى موضوع « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » ، فتناولت الموضوع من جميع نواحيه ، فكتبت المذاهب الأربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون

العقوبات ، ثم نفضت كل مذهب منهـا ، وخلصت فى النهاية الى أن الحكومة ليس لهـا حق معاقبة الجانى ، لأن كل حـكومة نشـأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحـق وانما الذى يعطيه هـو العقـد فقط ، وليس هناك أى عقد بين أية حكومة وبين أمتها !

ولما خرجنا من الامتحان ، وذكرت ذلك لزميلى محمود عبـد الغفـار ، أسف جدا لما فعلت ، وقال لى : « يا لطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينى فين ! » ·

وقد ألقى فى روعه أنى أخطأت فى هذا العمل ، ووثقت انى سآخذ « صفرا » على هذا الجـواب ، ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهى وجلست أمام اللجنة قال لى الشيخ محمـد عبده : « انى أهنئـك بمـا كتبت وقـد أعطـيناك أعلى درجة ، لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الانشاء ! »

وأظن أن هذه الكلمة هى التى شجعتنى على أن أنشىء فيمـا بعـد « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفـور لهم اسـماعيل صدقى (باشا) ، واسماعيل الحكيم (بك) ، وعبـد الهـادى الجنـدى (بك) ، وعبد الخـالق ثروت (باشـا) ومحمـود عبد الغفـار ·

ولقد هـويت منذ كنت طالبا فى الحقـوق الكتـابة فى الصحف ، فعاونت فى جريدة (المؤيد) بترجمة تلغرافاتها الخارجية ، عندما كان الأستاذ محمد مسعود بك مريضا ·

معركة لغوية !

وأذكر أن المرحوم الشيخ حمزة فتح الله اللغوى المعـروف استشهد يوما على صرف اسم « عمر » ببيت هو :

الي عمـــــر بن أبى غبقـــــة
بيليل يهـــدى ربحـــلا رجـــوفا

فاستنكر ذلك اللغوى الكبير الشيخ محمد الشنقيطى هـو وجماعته ومنهم الشيخ البكرى ، وأحمد زكى باشا . وكتب الشنقيطى مقالا فى جريدة « المقطم » يتحدى فيها الشيخ حمزة فتح الله ، وينفى وجوده فى الشعر العربى ، ويقول : « لو دلنى أحد على مكان هذا البيت واسم قائله لأهديت اليه عشر نسخ من لسان العرب » . وكان هذا الكتاب قد طبع حديثا ، فرد عليه الشيخ حسن الطويل .. وكان أستاذا بدار العلوم ، فقال له ان صحة البيت هكذا :

الى عمـــــرين الى غبقـــــة
فيليـــل يهـــدى ربحـــلا رجوفا

وان قائله صخر الهذلى ، وأنه فى صفحة كذا من لسان العرب ، وطالب الشنقيطى بالجائزة . فكتب الشيخ الشنقيطى يقول : « وقف لنا الشيخ حسن الطويل بين السماطين يطالبنا بالجائزة كأنما أعددنا الجائزة لمن يخطىء لا لمن يصيب » . فكتب الطويل يقول :

« روى البيت خطأ فصححناه ، وزيد الصحيح هو عينه زيد المريض » .

فكتب أحمد زكى باشا ينصر الشيخ الشنقيطى على الشيخ الطويل . وفى ذلك الحين قابلت الشيخ الطويل ومعه سلطان بك محمد ، فسلمت عليهما ، فقال الشيخ الطويل : « لماذا لم تنصرنى ؟ » فكتبت رسالة فى « المقطم » نظرت فيها الى النزاع من ناحيته القانونية ، وانتصرت فيها للشيخ الطويل وقلت انه يستحق الجائزة ولكن الشنقيطى أبى أن يدفعها ! ..

في استانبول

وفى صيف سنة ١٨٩٣ م سافرت الى استانبول ، وكنت ما ازال طالبا بالحقوق ، فالتقيت بزميلى وصديقى المغفور له اسماعيل صدقى (باشا) · وكان الخديو عباس حلمى الثانى يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما نمثل الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديو ·

وذات يوم كنت سائرا مع « اسماعيل صدقى » نتنزه على « كوبرى غلطة » · وكان به شىء من القدم والتهدم ، فأخذ « اسماعيل » يتساءل : أين ميزانية الدولة ، وينتقد بطء التعمير والاصلاح · ويظهر أنه كان يسير وراءنا ـ دون أن نشعر ـ جاسوس عثمانى ، كما كانت الحال فى ذلك الزمان ، فأبلغ رؤساءه هذا الانتقاد ·

وبعد بضعة أيام ركبنا معا حصانين ، وذهبنا للتفرج فى « بيوكدره » ولما عدنا الى المرفأ لنركب « الحميدية » الى استانبول قال لى اسماعيل صدقى : « أرجو أن تنتظرنى حتى أمر بأمين باشا » فانتظرته على ضفة البوسفور حتى عاد من زيارته ، فوجدته ممتقع اللون واجما حزينا ، فسألته عن أمره ، فأجاب : « سأقول لك متى دخلت المركب » · ثم قال لى ونحن فى « الحميدية » : « ان أمين باشا كان فى «المابين» (المعية السنية) فسمع من رجاله أن شابا مصريا اسمه اسماعيل صدقى تكلم ضد الدولة العلية وسياستها » ·· وكان جزاء من يثبت عليه ذلك أن ينفى فى بغداد حتى يموت ··· ولكن أمين باشا أجابهم :

« ان هذا الشاب الذى تعنونه ليس غير تلميذ صغير فى المدرسة لا يعبأ بكلامه » ·

فقالوا له : « اذن ما دام يهمك ، فليسافر فى أول سفينة تقوم من استانبول » • فسافر اسماعيل صدقى فى صباح اليوم التالى ، ووصل الى مصر فى ١٢ يوما •

أما أنا فبقيت فى استانبول مدة اجازة الصيف اتتلمذ على جمال الدين الأفغانى •

الفصل الثانى

اشتغالى بالسياسة

تتلمذت على جمال الدين ؟

فى اليوم التالى لسفر اسماعيل صدقى (باشا) ـ وكان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٣ ـ مررت بأحد مقاهى الاستانة ، فلقيت فيها بعض المصريين ، وفيهم سعد زغلول بك (باشا) وكان وقتئذ قاضيا بالاستئناف ، والشيخ على يوسف ، وحفنى بك ناصف، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الأفغانى ، فصحبتهم الى منزله، وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكنى لم أكن قد اجتمعت به من قبل· وكان قد ذاع صيته فى الشرق الاسلامى كمصلح دينى ، وفيلسوف جليل ، وسياسى خطير ، ونزل مصر سنة ١٨٧١ ، وأقام بها حتى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وعلى يديه نبغت طائفة من العلماء وكبار الكتاب فى القطر المصرى ، وقد رحل الى الهند وايران والعراق وأوربا ، ثم أقام فى أواخر حياته بالاستانة ، فنزل ضيفا على السلطان عبد الحميد فى منزله يدعى (المسافرخانة) موفور العيش ووسائل الاطمئنان ، وقد قوبل من العلماء ورجال السياسة الأتراك بالحفاوة والاكرام · وكان يخرج عصر كل يوم للرياضة والنزهة فى أطراف المدينة على عربة سلطانية خاصة ·

ولما ذهبت اليه مع اخوانى ، ألفيته رجلا مهيب الطلعة قوى الشخصية لا نظير له بين أهل عصره فى علمه وذكائه وألمعيته ·

وكان أبيض اللون ، ربعة ، ممتلىء البنية ، أسود العينين ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، جذاب المنظر ٠ يلبس عمامة وجبة وسراويل على زى علماء الاستانة ٠

وأظهر ما رأيته فيه سعة الاطلاع ، وقوة الحجة والاقناع ، فكان يستوى فى مجلسه الطالب مثلى وأساتذته الحاضرون ٠

وفى اليوم التالى ذكرت لسعد زغلول رغبتى فى التلمذة على السيد جمال الدين ، وسألته عن السبيل التى أسلكها لأكون تلميذا له ، فأجاب سعد :

ـ اذهب اليه ، واطلب منه ذلك ٠

فقصدت اليه ، فما كدت أقبل عليه حتى قام لتحيتى كالمعتاد ، فقلت له :

ـ أنا لست زائرا ، ولكنى تلميذ ٠٠٠

فسر رحمه الله بذلك ، وأخذ على عهدا بأن ألازمه طول اقامتى بالاستانة ٠٠ وقد فعلت ٠٠

اشرب يا ولدى ٠٠ اشرب !

واهم ما أظن انى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى الى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه الا اذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر ٠

وكان جمال الدين ميالا للسياسة يتحدث عنها كثيرا ، وكأنه يريد أن يقيم فى الشرق دولة تضارع انجلترا فى الغرب ٠

وكان رحمه الله شديد النقمة على الانجليز لسياستهم فى البلاد الاسلامية ، وهدمهم لدول الاسلام ، ولما وجده من اعتداءاتهم عليه ، واخراجهم له من الهند ، ودسهم له فى مصر حتى اخرج منها فى عهد الخديو توفيق ٠ وهو الذى كان يتمتع فى عهد الخديو اسماعيل بكرم الضيافة المصرية ، وكان يجرى له راتب شهرى ٠٠ وقد روى لى قصة سعيه الحثيث فى ذلك العهد للافراج عن لطيف سليم باشا ومن معه من الحبس حينما قاموا بالثورة العسكرية فى مدة الوزارة المختلطة ٠

وكان رحمه الله يقدر تلميذه « الشيخ محمد عبده » ، واذا ذكر اسمه فى مجلسه أعرب عن احترامه له ، وتقديره لذكائه وعلمه ٠ وكان يعيب على المصريين تخاذلهم وتفرقتهم ونزاعهم وسط ما يلم بهم من الحوادث الجسام ٠٠ ويردد قوله : « اتفق المصريون على ألا يتفقوا » ٠

وكان طيب الحديث ، لطيف المعشر ، حلو الفكاهة ٠ واذكر من حوادث مزاحه الطريف أنه قدم لى يوما سيجارة ، فدخنتها ، فأعطانى الثانية ، فاعتذرت ، فقال لى :

ـ الا ترى أن الانسان منذ نشأته الى الآن يأكل ويشرب ، ويلبس ، على خلاف فى الصورة فى العصور المتغيرة ، ولكن الجوهر واحد ٠٠ فما الذى جد عليه حتى علا نفسه فى القرنين

الأخيرين ، فاستكشف البخار والكهرباء ٠٠ الخ ٠٠ لا اظن انه جد عليه شيء الا شرب الدخان ٠٠٠ اشرب يا ولدى اشرب ٠٠ ! »

جمعية سرية لتحرير مصر !

أتممت الدراسة سنة ١٨٩٤ وحصلت على شهادة ليسانس الحقوق ، فعينت فى صيف ذلك العام أنا وجميع زملائى كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر وكان تعيينى فى هذه الوظيفة لأول مرة بالقاهرة ، ثم نقلت الى الاسكندرية ، فمكثت بها أشهرا ، عينت بعدها سكرتيرا للافوكاتو العمومى حسن باشا عاصم ٠ ثم انتدبت معاونا للنيابة ، ببنى سويف ٠ وسرنى ذلك ، لأنى وجدت بها صديقى عبد العزيز فهمى (باشا) وكيل النيابة وقتئذ٠ وفى سنة ١٨٩٦ عينت وكيلا للنيابة بمرتب عشرة جنيهات ٠ وكان صديقى عبد العزيز ما زال بها أيضا ، فأقمنا معا فى هذه المدينة ٠ وكنا نفكر فى حالة مصر ، وما تعانيه من الاحتلال البريطانى ٠ وفى ذلك العام أنشأنا جمعية سرية غرضها « تحرير مصر » ٠

وكانت هذه الجمعية مؤلفة من : عبد العزيز فهمى ، وأحمد طلعت رئيس النيابة (أحمد طلعت باشا فيما بعد) ، وحامد رضوان وكيل النيابة ، ومحمد بدر الدين وكيل النيابة ، والدكتور عبد الحليم حلمى ، وأنا ٠٠ ثم ضممنا اليها على بهجت بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا ٠

حـزب وطنى برياسة الخـديو !

وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصـطفى كامل ، فقـال لى : « ان الخـديو عبـاس يعـلم كـل شىء عن جمعيتـكم السرية وأغراضـها ۰ وأظن أنه لا تنـافى بينها وبين أن تشترك معنـا فى تأليف حـزب وطنى تحت رياسـة الخـديو » ۰

فأجبته : « لا مانع عندى من ذلك » ۰ وأبلغ مصـطفى الخديو هذا القبول ، واستأذن لى فى مقابلة سـموه ۰ وذهبت اليـه ، فتحدث معى سـموه عن أغراض الحـزب الذى يريد تأليفه ، وطلب منى أن أسافر الى سويسرا لكى أكتسب الجنسية السويسرية ، ثم أعود الى مصر لاحـرر جريدة تقـاوم الاحتـلال البريطانى ۰ والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المنال لا يكلف الراغب فيـه الا اقامة سنة واحدة بها ۰

وكان الخديو عباس يظن وقتئذ أن فرنسا تسـتطيع أن تؤلب الدول على انجلتـرا لتجـلو عن مصر ، والذى أطمعـه فى ذلك زيارة « المسـيو ديلونـكل » النـائب الفـرنسى لسـموه ووعـده له بذلك ۰

وبعدما خرجت من مقابلة الخـديو عبـاس ، اجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا فى منـزل محمد فريد ، وألفنا الحزب الوطنى كجمعيـة سرية رئيسها الخـديو ، وأعضـاؤها : مصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، وسـعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان « والد أمين عثمان باشا » ۰ ولبيب محـرم (شفيق عثمان محرم باشا) ، وأنا ۰۰

ومن طرائف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخـــديو كان اسمه بيننا : « الشـيخ » ومصـطفى كامل « أبو الفـــداء » ، وأنا « أبو مسـلم » ··· !

اقامتى فى جنيف

سافرت بعـد ذلك الى جنيف لأكتسب الجنســية السويسرية حسب الاتفـــاق ، وكان معى كتـابان من عـــلى بهجت بك الى المستشرق « ماكس فـــان برشـم » والأسـتاذ « نافيل » الأثرى المعـروف · فلما قابلت الأسـتاذ « ماكس » ســـهل لى استخراج جـواز الاقامة ، وأدخلنى نـدوة الفنــانين ، وكان مكلفـــا من الحكومة الفرنسـية بجمـــع الآثار الاســلامية فى مصر والشــام ودراستها ، ووضع مؤلف بهـا ، فأخـذت أقضى معه وقتـــا فى مسـاعدته على اســتجلاء معـــانى النقوش العـربية التى جمعها من الآثار · وأما المســيو نافيـل الـذى كان مشـهورا بعـــلاقاته برجال الســياسة فى سويسرا وفى الخـــارج ، فقـــد جـاءنى فى الفنــدق وبعد خمسة عشر يوما ، وجــرى بينى وبينه حـديث طويل انتهى بقـــوله :

ــ لا تظن أن أوربا تساعدكم على انجلترا ·· وأرى أن لا يحرر مصر الا المصريون ·· !

مع الشيخ عبده بجنيف

مكثت فى جنيف سنة ١٨٩٧ أقضى الأشهر الأولى فى الدراسة وحضور بعض المحـاضرات بالجامعة ، وأتعلم « الشيش » فى أوقات الفراغ حتى أقبـل الصيف ، فجـاءنى فيها الشيخ محمد عبــده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، فلم أخبرهم بمهمتى الســياسية · وكان

قاسم وقتئذ يؤلف كتـاب « تحرير المرأة » ، فقرأ علينا فصـولا منه مدة اقامته بيننا · ثم سافر مع سعد زغلول من سويسرا ، وبقى معى الشيخ عبده · وكانت جامعة جنيف قد أعـدت فصلا صيفيا لدراسة الآداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس فدخلت فيـه ·· ولما ذكرت ذلك للشيخ محمد عبده أحب أن يحضر دروسه ، فقدمته الى مدير الجامعة باعتباره قاضيا فى الاسـتئناف واحد مديرى الأزهـر ، فقبله بهـذا الوصف فمكثنـا نتردد على هذه الدراسة ·

والد محمد فريد يبكى

وأذكر اننى والشيخ محمد عبـده فى جنيف ذهبنا لزيارة محمد ثابت باشا الذى كان مهردارا للخـديو اسـماعيل ـ أى حامل اختام الخـديو ـ وهو يسـاوى رئيس الديوان ـ وكان معـه أثناء الزيارة أحمـد فريد باشا والد محمـد فريد ، وكان ناظرا للدائرة السنية ، ومن كبراء مصر المعـدودين · فلما اسـتقر بنا المقـام أخذ فريد باشا يشكو ابنه الى الشيخ محمـد عبده ، ويبكى، وكان وقتئذ مريضا ، ويقـول للشيخ ·

ـ هل يصح يا سـيدى الأستاذ أن يهـزئنى محمـد فريد فى آخر الزمن ، ويفتح دكان أفوكاتو (مكتب محام) ؟!

وكان محمـد فريد قبل ذلك وكيـلا للنيـابة ، وحـدثت واقعة شركات التلغرافات التى اتهم فيها الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، وقـدم الى المحاكمة من أجـل نشر هذه التلغرافات فى جريدته · وحضر محمد فريد الجلسة ، فبدرت منه ألفاظ ضـد الحكومة عدتها جارحة لها ، فأمرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته بعد استشارة رياض باشا ، وفتح مكتبا للمحـاماة بالاشتراك مع محمود أبو النصر ، وانشأ مجـلة « الموسـوعات » وكنت أنـا أحرر فيهـا من وقت لآخـر ، واذكر اننى كتبت بهـا عدة مقـالات

تحت عنوان « مشخصات الأمة » ناديت فيهـا باصلاح الحــروف العربية كى يقرأ القـارئون اللغة قراءة صحيحة من غير أن يتعلموا النحـو والصرف ٠٠٠٠

فلما سمع الشيخ محمد عبده شكوى أحمد فريد باشا لاشتغال ابنه بالمحاماه أخـذ يهدىء من نفسه ، ويعرب له انه يخالفه فى رأيه، ويرى الاشتغال بالمحاماة ليس فيه ما يجرح الكرامة وما يخـل بالشرف على نحـو ما يظن الناس ، وما كان مألوفا فى فهمهم لهـذه المهنة فى ذلك الزمان !

الخـديو يغضب منى !

كان الخديو عبـاس لا يميل الى الشيخ محمـد عبده ، ويظهر أن بعض الناس أبلغ الخديو أنه كان يعايشنى فى جنيف ٠ فلما عـاد الى مصر جاءنى مصطفى كامل ، وأفضى الى بأن الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ عبده ٠ ثم قال مصطفى : « ٠٠ ومع ذلك لم ننجح فى الحصول على موافقة الباب العالى على تجنسـك بالجنسية السويسرية ! » ٠

رجعت من سويسرا ، ولما وصلت الى الاسكندرية ارسـلت تقريرا ضافيا الى الخديو عباس دونت فيـه أبحاثى السـياسية بجنيف ، وقلت : « ان مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهـود أبنائها ، وان المصلحة الوطنية تقضى أن يرأس سمو الخديو حركة شاملة للتعليم العـام » ٠٠ ثم سافرت من الاسكندرية الى الفيوم عـائدا لوظيفتى بالفيـوم ، ولم اتصل بالخديو ٠٠ وكان صديقى عبد العزيز فهمى قد انتقل منها لوزارة الأوقاف وأنا بأوربا ، فبقيت فى الفيوم مدة انتقلت بعدها وكيـلا للنيابة بميت غمر سنة ١٩٠٠ ثم نقلت منها الى الفيوم ثانيا ، ثم الى المنيـا ٠

وكانت سنة ١٩٠٥ ، فاستقلت من النيابة لخلاف فى الرأى القانونى بينى وبين النائب العمومى كوربت بك ٠٠ ولم تكن الاستقالة الأولى من النيابة ، بل استقلت قبل ذلك مرة أخرى لخلاف قانونى أيضا ، ولكنى لم أنجح فى الاصرار عليهــا ٠

فلما وقع هذا الخلاف بينى وبين النائب العمـــومى ، أصررت على الاستقالة على الرغم من أنه نزل عن رأيه الذى كونه من خطـأ وقع فيه وكلاؤه فى تكييف الوقائع ، لأنى ضقت باحتمال جــو خانق بالنيابة اذ كنا مكلفين بألا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعـد أخذ رأى النائب العمومى ٠ وقد عزمت على أن أعيش فى بلدى ، وكنت متأثرا وقتئذ بما كنت قرأته من مؤلفات تولستوى ٠ ولــكن صديقى عبد العزيز فهمى ــ وكان قد استقال من الأوقاف واشــتغل بالمحاماة ــ ألح على فى الاشتغال معه ، فأجبت رغبته واشتغلت بها فترة قصيرة ثم اعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير فى صحيفة « الجريدة » ٠

الفصل الثالث

اشتغالى بالصحافة
ورأيى فى الخديو عباس

أسلفت انى عدت من سويسرا بعد أن أبلغنى مصطفى كامل ان الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ محمد عبده فى جنيف ، وكان سموه لا يميل اليه · وقد قدمت لسموه تقريرا عن أبحاثى السياسية بعد عودتى الى الاسكندرية · ثم سافرت الى وظيفتى بالنيابة · ومكثت بها بضع سنوات حتى كانت سنة ١٩٠٥ فاستقلت منها لخلاف فى الرأى القانونى بينى وبين النائب العمومى « كوربت بك » · وعلى الرغم من نزوله عن رأيه ، فقد أصررت على الاستقالة ، لأنى ضقت باحتمال جو خانق بالنيابة فقد كنا مكلفين فيها بألا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعد أخذ رأى النائب العمومى خلافا لما كان العمل جاريا عليه من قبل ، وعزمت بعد ذلك على أن أعيش فى بلدى ، لأنى كنت وقتئذ متأثرا بما قرأته من مؤلفات تولستوى ، ولكن صديقى عبد العزيز فهمى ـ وكان قد استقال من الأوقاف واشتغل بالمحاماة ـ ألح على فى الاشتغال معه ، فأجبته الى رغبته ، واشتغلت بالمحاماة بضعة أشهر (١) ثم اعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير بالجريدة ·

---

(١) فى مذكرات المرحوم عبد العزيز (باشا) أنه لما اشترك مع صديقه أحمد لطفى السيد فى العمل معا بالمحاماة سنة ١٩٠٦ ، جاءه والده ذات يوم كان =

= يحبه حبا جما ، وأخبره أنه شارع في شراء عزبة ، مساحتها أربعمائة وخمسون فدانا ، وأنه يريد كتابتها باسم « لطفي » فعند ذلك غضب لطفي ، وقال لأبيه :

ــ كلا ٠٠ لا أقبل مطلقا أن تميزني على أخوى سالم وسعيد ، فان أردت أن يكون العقد لي ولهما ، فذاك ٠٠ والا فلا فاكبر والده ذلك الشعور ، وأكبرت ذلك الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة ، ولم يسع والده الا اجابة طلبه ٠

أما سبب انصرافه عن المحاماة الى العمل بالسياســـة والصحافة ، فلذلك قصة ٠٠ تلك أن المرحوم على شعراوى الذى كان يعرف لطفي السيد ومقامه عندما كان رئيسا لنيابة مدينة المنيا ، جاء ذات يوم الى مكتبنا ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » ، وأنبأنا أن بعض الناس زوروا عليه سندا بمبلغ كبير ، وانه حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا بالمبلغ ، ويريد أن يعمل له لطفي السيد التماسا باعادة النظر في الحكم النهائي ، فدرس لطفي القضية ، ودرستها انا أيضا معه ٠٠ فلم نجد وجها قانونيا للالتماس ٠ ولان شعرواى باشا يعلم بأن الحكم ظالم الح هو وعم عزام ليعمل لطفي الالتماس ، فقبل كارها بعد أن أفهمهما أن هذا الالتماس لا وجه له ٠ ولما رفضت المحكمة الالتماس ، حدث أننا كنت أنا ولطفي ذات يوم داخلين المكتب ، فوجدنا عم عزام قاعدا على الباب ، فحين رآنا انتفض قائما ، وقال : « بقى الفلوس ودفعتها ٠٠ والقضية وخسرتها ٠٠ وأعمل أيه ٠٠ ! » وهو يعنى بالفلوس مبلغ العشرين جنيها التى كان قد دفعها لمكتبنا كمقدم أتعاب ٠٠ ومن أخلاق لطفي السيد أن المال لا قيمة له عنده ، وأنك اذا شئت أن تعكر دمه ، فناقشه في مسألة مالية ٠٠ فلما سمع لطفي عبارة عم عزام أسرع بالدخول الى المكتب ، وفتح الخزانة ، وأخرج منها العشرون جنيها ، وكلف المرحوم محمد سليمان كاتب المكتب أن يعطيها للرجل ، وأن يتلطف معه ، فيقول له : ان نقوده هذه كانت أمانة عندنا ، وقد نبهناه الى أن الالتماس لن ينجح ، فلما ألح حفظنا هذه النقود على ذمته لنردها له ٠

وعند انصرافنا من المكتب قال لى لطفي : « هل هذه هى المحاماة ؟ ٠٠ أنا في غرفة المحامين أسمع من البعض فحش القول وهجره ٠ وأجد من بعض القضاة جفاء وغلظة ٠٠ وها هم أولا أصحاب القضايا يمثلهم عم عزام ٠ فالوسط من أوله الى آخره ، لا يعاش فيه ٠ ولذلك صممت على تطليق المحاماة » !!

ومن ذلك الحين كان أكثر اشتغالى بالسياسة ، وتحرير « الجريدة » ٠

اصحاب المصالح الحقيقية

وفى ذلك الحين وجدت مشكلة « العقبة » بين مصر وتركيا . وكان الأتراك يدعون انها لهم ، والانجليز يقولون انها ملك لمصر ، وكانت الجرائد الوطنية تنصر الأتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما كانت الحال فى مسألة « فاشودة » ، فان المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الانجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر . وهذا المعنى لا يمكن تفسيره الا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر .

فكرة انشاء « الجريدة »

وفى هذه الأثناء ، تحدثت فى أحوالنا السياسية مع صديقى محمد محمود باشا ـ وكان وقتئذ سكرتيرا لمستشار نظارة الداخلية .. وكان حديثى يتناول مسألة « العقبة » وما يجب لمصر فى ظروفها السياسية من انشاء جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد .. وقد رأينا أن تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية الذين كان يصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليم بأنهم راضون عن الاحتلال ، ساكتون عن حقوق مصر ، وان الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشبان الأفندية والباشوات الأتراك !

لهذا الغرض دعوت فى « الكونتننتال » أصدقاءنا : محمد محمود ، وعمر سلطان ، وأحمد حجازى ، ومحمود عبد الغفار ،

وتحدثنا فى الأمر ٠٠ وقد لاحظنا فى حديثنا وأبحاثنا أن الأمل الذى كان المصريون يعقدونه على فرنسا فى المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٠٤ ٠ وكانت السياسة الفرنسية قبل هذا الاتفاق ترمى الى مناوأة السياسة الانجليزية فى مصر بعد أن فازت انجلترا دونها باحتلال وادى النيل ، وكانت فرنسا تعانى فى ذلك الحين مصاعب فى مراكش ، وخشيت أن يؤدى فشل ادارتها هناك الى تدخل الدول وبخاصة انجلترا وأسبانيا ٠

ولكن أسبانيا كانت مشغولة بمتاعبها فى المنطقة الأسبانية وكانت انجلترا هى الدولة التى يخشى منها ٠ ولهذا أرادت فرنسا أن تحصل على حيادها ٠ وكان الثمن الطبيعى لذلك أن تحصل انجلترا على حياد فرنسا فى شئون مصر ، فعقدت الدولتان هذا الاتفاق ٠ وأهم ما نص عليه :

« ان تعترف الحكومة الانجليزية انها لا ترغب فى تغيير نظام مصر السياسى ، وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء أو بأية طريقة أخرى » ٠

وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى لمصر ، وتركت لانجلترا حرية أكثر مما كان لها فى الشئون المصرية ٠ وكان من نتيجة ذلك أن انهار أمل المصريين فى فرنسا ، وتحققوا أنه لا يمكن الاعتماد عليها ، ولا على أية دولة فى المسألة المصرية ، وان على مصر أن تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال ٠

تأليف شركة « الجريدة »

تبادلنا الرأى نحن المجتمعين فى هذا الموقف ، ووضعنا الخطة التى نسير عليها ، وعينا المبادىء التى تقوم عليها جريدة حرة

مستقلة غير متصلة بسراى الخديو ، ولا بالوكالة البريطانية ، وأخذنا نسعى فى اقناع أصدقائنا ومعارفنا من أعيان البلاد وألفنا فى بيت محمود باشا سليمان شركة « الجريدة » ، وانتخبت أنا مديرا لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات ٠

وكان رئيس الشركة محمود باشا سليمان ، ووكيلها حسن باشا عبد الرازق الكبير ٠

وبعد تأليف هذه الشركة ، أخذت الجرائد المتصلة بالخديو عباس تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، واننا نمائلهم ضد الخديو ٠ وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ، لأنه كان بين شركائنا فى « الجريدة » عدا الأعيان طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة ٠ ومن هؤلاء أحمد فتحى زغلول باشا رئيس محكمة مصر ، وأحمد عفيفى باشا المستشار بالاستئناف ، وعبد الخالق باشا عضو لجنة المراقبة وصاحب الأثر الكبير فى وزارة العدل ٠

ومن الطريف ان كانت هناك جريدة يصدرها وقتئذ حافظ عوض باسم « خيال الظل » فنشرت أبياتا ينسبها بعضهم الى أحمد شوقى جاء فيها :

« ما فى « الجريدة » من نرجيه سوى

« لطفى » فردوه لنا وكلوها ! »

وقد بقيت هذه التهمة عالقة بالجريدة حتى ظهرت بعد ستة أشهر من تأليف الشركاء فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ ٠ وقد افتتحتها بمقال تضمن أغراضها ومبادئها ، جاء فيه :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها ارشاد الأمة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض

على الأخذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والأمة بتبيين ما هو خير وأولى ، تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم وأعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم ، وهو الأمة ٠٠

« لا يكون من أهل الوطن الواحد أمة الا اذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم ، وان أظهر المشابهات فى حالة الأمة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الأفراد وهذا ما يسمونه بالرأى العام ٠٠

« والناس بطبائعهم اشتات فى الرأى ، كما قيل : « للناس عدد رءوسهم آراء » وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ، ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الأمور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم الى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما ، وأن بهذا الوجود العام كما لا يجب أن يرقى اليه بعمل الأفراد ٠٠ » الخ ٠٠

وكان من عادتى أن أكتب افتتاحيات الجريدة ٠ ما كاد يمضى على صدورها غير أيام ، حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر ، فخطب خطبته المشهورة فى « الأوبرا » ، وعلقت « الجريدة » عليها تعليقا لا يقل عنفا عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقتها وعلى مبادئها تنقد أعمال السلطة الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد أعمال السلطة الشرعية ــ سلطة الخديو عباس ٠

وقد يحسن هنا أن أتحدث بايجاز عن هاتين السلطتين ليقف القارىء على حالة مصر ، ومركز كل من الخديو واللورد كرومر فى ذلك الحين ٠

الخـــديو عباس

كان الخديو عباس حلمى الثانى قوى الارادة لا يحتمل أن يرى غيره يتصرف فى حقه ، فعندما ولى الخديوية المصرية أظهر صفات القوة الشخصية والشجاعة الأدبية والعزة اللائقة بالملوك ، فأنكر على الانجليز تصرفهم فى حقوقه واستئثارهم بالأمر دونه ، وعز عليـــه أن يصدر كل شىء باسمه على غير ما يختار ، فنفر من معاملتهم اياه معاملة المغفور له والده ، وعارض فى كثير من المسائل شـــدة ، فتنبه لذلك الشعور الوطنى ، وقال الناس : « ان هذا الأمير سيعيد لنفسه مجـد أبيه الأكبر محمد على باشا » .

وقد رأى أن وزارة مصطفى فهمى باشا هى من أكبر وزارات « الوفاق » أو « الاستسلام » ، فأسقطها ، ونصب وزارة حســـين فخرى باشا فى ١٦ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن انجلترا ارغت لهـــذا التصرف وأزبدت وعارضت فى تنصيب الوزارة الجديدة ، وأكرهت « الخديو » على اسقاطها فلم تلبث فى الحكم غير ثلاثة أيام ! ولكن ذلك لم يفل من عزم الأمير المطالب بحقه ، فسار فى سياسة الخلاف كلما حانت الفرصة ، حتى انتقد الجيش فى بعض نظمه وكان عـلى رأسه « كتشنر » حينما تفقده الخديو فى الحدود المصرية ، فغضبت الحكومة الانجليزية ، وطلبت الترضية فوقف سموه موقف المتمسـك بحقه من ابداء رأيه فى جيشه ، ولكن الوزارة المصرية الجديدة برياسة مصطفى رياض باشا ، قد اضــــطرت يومئذ الى اجابة مطـــالب انجلترا ، فكانت النتيجة أن شكر ســـموه الجيش ترضية للسردار كتشنر !

وبعد ذلك جاءت سياسة « شـــبه الوفاق » من سنة ١٨٩٤ ، فأكثر الانجليز من عدد مستشاريهم وموظفيهم فى النظارات ، وأخذت « عابدين » و « قصر الدوبارة » كلتاهما تحمى من يلجأ اليهمـا من الموظفين من الجهة الأخرى ، وترتب على حادثة الحدود ومـا سبقها نتيجة مساوية للنتيجة التى ترتبت على رضا الخديو السابق توفيق باشا بالغاء قرار مجلس النظار القاضى بالاستغناء عن خدمات « مستر سكوت » • ثم أعقب ذلك امضاء اتفاقية السودان التى جعلت ادارته شركة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية • ولـكن المصريين فطنوا ازاء تلك الحوادث ، الى أنه يســـتحيل عليهم أن يتقدموا فى سبيل المدنية خطوة الى الأمام الا بمشاركة الأمة للحكومة فى الأعمال العامة ، فأخذ كتابنا وكبراؤنا يشعرون بضرورة طلب الدستور عن طريق التدريج ، فحنق الانجليــز ـ رغم اشـــادتهم بالحـرية ـ من هذه المطالب ، ولم يقتصروا على مناوأتهم للأمير الذى لا يريـد أن يكون الاتفـــاق معهـــم سببا فى انقـاص سلطته الشخصية ، بل نالوا من الأمة أيضا بالتشـــهير ، فلما ان جاءت حادثة « العقبة » رأى الانجليز ان المصريين يبرمون بهم ، فأرادوا أن يعطوهم درسا أليما بأحكام حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، ظنـا منهم أن تلك السياسة ـ سياسة القسر ـ تصرف المصريين عن آمالهم فى الدستور ، وتقطع ألسنة الخاطبين ، وتكسر أقلام الكاتبين لترشيح الأمة للدستور ، ولكن النتيجة جاءت على العكس مما قدروا فان هذه الحادثة جعلت مصر تزيد اقتناعا بأن حيـــاتها موقوفة على نيـل الدستور بقدر ما يسمح به مركزها الســـياسى ، فازدادوا طلبا له وتشبثا به فقلل الانجليز من حدتهم ، ولانوا من جانبهم ، وجنحوا الى استرضاء الخديو عباس بسياسة الوفاق •

وفى أثناء تلك الحرب السجال بين السلطة الشرعية ، والسلطة الفعلية ، أو بين الخديو واللورد كرومر واختلافهما على أيهما يكون له الأثر الفعلى فى الأمة المصرية قامت « الأمة » بين السلطتين تثبت شخصيتها غير المعترف بها من الفريقين ، وتؤدى فى سـياسة البلاد واجبها حتى لا تكون متاعا لكل غالب ، ملتزمة فى ذلك طريق الحكمة والسلام ٠

الفصل الرابع

لورد كرومر

أمام التاريخ

أعمـال اللورد كرومر

فى أوائل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر · وذلك بعد أن مضى على حادثة دنشواى الشهيرة نحــو عام ·· تلك الحادثة التى أبرزت سياسته الاستبدادية للعالم بصورة بشعة ، وأوضحت أعماله الاستعمارية لمصلحة قومه وبلاده بحـالة لا تتفق مع مكانة دولة متمدنة · ومع ذلك فان هذه الاستقالة عزيت الى سبب آخر هو ضعف صحته · ومهما يكن هــذا السبب ، فانه لو كان قد بقى لورد كرومر عاما واحدا فى منصبه لعيد عيده الذهبى فى خدمة دولته ، لأنه صرف حتى يوم استقالته تسعة واربعين عاما فى خدمة المصلحة البريطانية · ولقد أصدرت من صحيفة « الجـريدة » فى ذلك الحين ملحقا ذكرت فيه لمحة من ترجمته ، ثم فصلت أعمال ذلك السياسى بما له وما عليــه ، فقلت :

تنقسم أعمــال اللورد فى مصر الى قســمين : أعمــال مالية واقتصادية وأعمال سياسية :

أما أعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها فى مصر ســنة ١٨٧٧ اذ عين عضوا انجليزيا فى صــندوق الدين المصرى ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع فى المسائل المالية ما أنساها القاعدة القائلة ان الذى يربى بين البنادق والمدافع كالشــاب « أفلن بارنج » لا يميـل به طبعــه الى المالية أو السياسة ·

وفى سنة ١٨٧٩ اتفقت الحكومتان البريطانيـة والخـديوية على تعيينه مراقبـا عاما للمالية المصرية ، لأن انجلترا كانت تهتـم مع فرنسا أشد اهتمام بالمالية المصرية صـونا لأموال الانجليـز والفرنسيين ، فأظهر براعة كبيرة ٠ وكان فى جملة الذين مهـدوا السبيل لاصدار قانون التصفية (١) الذى ضمن للدائنين الأوربيين أموالهم مع فائدتها ٠ وقبل أن يصدر ذلك القانون حدث أن مالية الهند ارتبكت ارتباكا شديدا فعينته حكومته عضوا ماليا فى المجلس الهندى، وهناك لم يفعل الا ما زاد حكومته ثقة به ٠

ولما تقرر أن يغادر السير ادوارد مالت معتمد انجلترا فى القطر المصرى ، لم تجد الحكومة البريطانية رجلا أخلق بمنصبه من لورد كرومر (وكان لا يزال اسمه السير أفلن بارنج) ٠ ولما اجتمـع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر فى المالية المصرية كان فيـه مندوبا محترم الرأى ٠ وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح فى مصر قبل أن تقوم المالية فيها على أساس متين ٠ ولا تقوم المالية على ذلك الأساس الا اذا زادت مواردها ووثقت بها أوروبا ٠ ولا تزيد مواردها الا اذا تحسنت أحوال الرى على الأخص ، فأصبحت أرض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على انباته ٠ وأما الموارد الأخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبوستة ، وسائر مصادر الدخل فانها تأتى فى المقـام الثانى ٠ ولذلك أفرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها عـلى عقد قرض خص جزءا منه بالرى ٠

وما أن جـاء سـنة ١٨٩٩ حتى صـار دخـل الحـكومة (١١٫٤١٥٫٠٠٠ جنيـه) وكان كلما زاد التحسن فى المالية ، زاد فى المسـاعدة على تخفيف الضرائب ، غير أن النفقـات كانت طائلة بسبب فوائد الديوان ونفقات المشروعات ٠

---

(١) فى ابريل سنة ١٨٧٩ الفت لجنة للتصفية ـ أى تصفية الديون المصرية لاوربا ـ وصدر قانون التصفية فى ١٧ يوليو سنة ١٨٧٩ ٠

وكان لدى لورد كـــرومر مشروعان يؤلمـــانه ويشكو منهما • أولهما : صندوق الدين • والثانى : وهو متعلق بتخصيص ما قيــده قانون التصفية بالديون كالدائرة السنية والدومين ونحـــو نصــف دخل الســكك الحــديدية ، فلم يجـد وسـيلة للخــلاص من هــذين المشروعين سوى الاتفـــاق مع فرنسا أولا • وحــدث أن الملك ادوارد مال الى هـــذا الاتفـــاق ، وحببه الى حـكومته ، فاغتنـــم كرومر الفرصـــة ، وأيده بمـا استطاع •• كما ذكر أخيرا فى حديثـــه مع مراسلى الطـــان •

أما السبب الذى حمــل لورد كرومر على الشكوى من صندوق الدين مرارا فى تقاريره ، فهو أن الصندوق لم يكن يقدم كل ما تطلبــه الحكومة المصرية من الأموال اللازمة للاصلاح • وقيل أن لورد كرومر لما أذن بتأسيس البنك الأهلى ، وأيده تأييدا معروفا كان يؤمل أن يقوم يوما مقـــام صندوق الدين •• وها نحــن أولاء نرى هــذا الأمــل يوشك أن يتحقق ••

ولما تم الاتفاق الودى ســنة ١٩٠٤ (١) بين فرنسا وانجلترا كان أول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين ، فرضيت فرنسا بالشروط التى عرضها عليها • ثم وافقت الدول الأخرى التى لهـــا أعضاء فى ذاك الصندوق •

ولقد بات لورد كرومر فى راحة عظيمة من الوجهـــة الماليــة بفضــل ذلك الاتفاق ، فلم يعد يرى فرنسا تعاكسه كما عاكست فى مسألة تحــويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين أخذت نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، اضطر الى رده

---

(١) اتفاق عقد بين فرنسا وانجلترا بأن تطلق كل منهما يد صاحبتها ، تلك فى شمال افريقيا ، وهذه فى مصر •

بحكم من المحكمة المختلطة · ولا يشك أحد فى أن لورد كرومر فـاز فوزا ماليا عظيما بادخال ما أراده من المواد المتعلقـة بالمالية المصرية فى ذلك الاتفاق ، كما فاز مع حـكومته فوزا سياسيا بحمل فرنسـا على التعهد لهم فيه : « بأنها لا تقيم أقل عقبة فى سبيل انجلترا بمصر سواء كان بطلب تعيين موعد للجلاء أو غيره » ·

وكان من سياسته المالية أيضا ، ان يرفع أثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين ·· فأنشأ البنك الزراعى بعد انشاء البنك الأهـلى ونصح للحكومة المصرية وللبنك الأهلى بأن يساعداه حتى يقـدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سبل المعاش ، فأنشئ هذا البنك، وجعـل من مواد قانونه أن يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنيه بفائدة ٩ فى المائة · غير أن بعضهم ينتقد البنك المذكـور فى بعض أمور ليس هنا محـل ايرادها ·

وليس فى وسع أحد أن ينكر النتيجة التى وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية · واذا كان بعضهم ينتقـد تفاصـيل معينة فى بعض المصروفات ، فان كل عاقل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من خيرة الاقتصـاديين وأكابر الماليين · فكم زادت مساحة الأرض المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ الى اليوم ، وكم زادت قيمة الأرض الزراعية وأرض البناء بفضـل سياسته · فليس بعجيب أن تعظم ثقة الأوربيين باللورد كرومـر حتى صاروا يعدون كلمته حجة · أما خـلاصة آرائه فى الحـالة الحـاضرة ، فهى أن هـذا النجـاح الاقتصادى قائم على قـواعد راسـخة ، غير أنه يجـدر بالمصريين وغيـرهم ألا يتهـوروا فى الاقبال على احدى الشركات قبـل أن يدققـوا ويفحصوا ، ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الأركان ··

أعماله السياسية

لا ينكر أحد على لورد كرومر أنه سياسى محنك بعيد النظر رحب الصدر ، طويل الأناة كما يجب على كل سياسى ٠٠ غير أن سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التى صرف فيها شبابه ٠ تريد أنه شديد المراس فى مطلبه ، عظيم الاصرار على أمره ٠ يبقى سنوات عديدة يسعى الى غاية واحدة ، ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهانا لتأييد رأيه ٠ ولا يدلنا على هذا كله مثل الحوادث التى جرت منذ ١٨٨٤ الى اليوم ، ولو اتخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلا لكانت برهانا كافيا على خطته ٠ فانظر كيف أنه كان يجاهد جهادا متواصلا حتى يستنبط فى كل زمن وسيلة جديدة لارساخ قدم دولته فى وادى النيل ، فسير حملة السودان ، وكان فى كل ساعة يستنجد الدماء الانجليزية التى اريقت فى أم درمان على كل انجليزى ان يلفظ كلمة الجلاء ٠٠ حتى استمال الى رأيه كبار الأحرار والمحافظين ، فأيده لورد روزبرى ، كما أيده لورد سالبرى ، واستمال اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوارد جراى ، وبات الأسطول البريطانى حارسا لما قرره فى المسألة المصرية ٠ فما رأينا حكومته ترد له طلبا ، أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى درجات الشره ٠ واننا نورد للقارىء هنا مثلا واحدا لتلك الثقة العظمى بسياسته :

لما وقع الخلاف بينه وبين الخديو عباس على تعيين حسين فخرى باشا خلفا لمصطفى فهمى باشا سنة ١٨٩٣ ، ذهب لورد كرومر الى عابدين ، واعترض اعتراضا شديدا على تعيين فخرى باشا ،

وأظهر للخديو أن اصراره على رأيه يجعــــل الأمر خطـــرا ، وابرز له تلغــرافا من اللورد روزبرى ناظر الخارجية يؤيد قوله (١) ٠

قان معتمدا سياسيا يجد من حكومته مثـــل هذه المســاعدة فى هذا الحادث ، يستشعر من نفسه حزما وان يكن بلا حــزم ٠٠٠ فكيف برجل عسكرى كاللورد كرومر ٠ واذا أراد المطـــالع برهانا آخر على تقديس الحكومة الانجليزية لكل رأى من آراء لورد كرومر فى المسائل المصرية ، فليذكر حادثة فاشودة (٢) التى كادت تضرم نار الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وما تلك الحادثة وطرد كولونيل مرشان ورجاله من الجــزء الذى احتله من السودان الا تأييدا لسياسة كرومر ، وما الاتفاق الذى عقـــد بين فرنسا وانجلترا بعــــد تلك الحادثة على مناطق السودان الا بناء على رأى لورد كرومر أيضا ، تمهيدا لاتفاق أكبر وخطوة أوسع فى سبيل التقرب بعد ذلك التباعد بين الدولتين ٠

ولما عقد ذاك الاتفاق ، أى اتفاق ســنة ١٩٠٤ ، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية فى هذا القطر ، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية ، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية ، فكتب قبل استقالته بعام فصلا طويلا عن وجوب تغيير الطريقة القـــديمة

---

(١) أسقط الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، وعين فخرى باشا رئيسا للوزارة ، وأراد بذلك أن يحقق سلطته الشرعية ٠ فعل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة ، قبل أن يعرف رأى حكومته ، وانتهى الأمر بأن عدل الخديو عن فخرى باشا ، وعين رياض باشا رئيس وزارة ٠

(٢) وقعت حادثة فاشــودة فى أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، اذ احتل الكولونيــل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسـية جزءا قال الانجليز أنه تابع للسودان ، وأن لمصر حقوق السيادة عليه ٠ وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنســا مبلغـا كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين ٠

فى الامتيازات الأجنبية ، ثم نشر فصلا ضافيا فى هذا الموضوع ، اطلع عليه الناس وقتئذ ٠٠٠ فكانت حملاته على طريقة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل أن ينال مراده ٠

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب فى هذا الباب ، فان كل خطبة لرجال الحكومة الانجليزية ، وكل تقرير من تقارير لورد كرومر ، وكل أثر من آثاره السياسية ، يظهر حقيقة تلك السياسة التى اتبعها الشيخ الراحل ٠ ولقد كان تقريره الأخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادى ٠٠ وفى تلك الوصية لا ينصح دولته ببسط الحماية على مصر الآن لأن بسطها يقضى بتغير فى الحالة السياسية مع أن انجلترا تعهدت فى الاتفاق الانجليزى الفرنسى ، بأنها لا تغير شيئا من تلك الحالة ، كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انجلترا فى القطر المصرى ٠

نتيجة تلك السياسة

فما هى نتيجة تلك السياسة كلها ؟

نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انجليزى فلا يسع الناظر سوى الثناء عليه ٠ أما اذا نظرنا اليه بالعين التى يجب على المصرى أن ينظر بها الى مصلحة وطنه ، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئا من الثناء على عمله السياسى فى مصر ، فانه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليها كل أمة حية ٠ واذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية ، فلا يمكننا أن ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفى الحكومة من المصريين فنزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم ، والقاها فى أيدى الموظفين الانجليز ، فبات كثير من أذكياء الشبان المصريين ينفرون من وظائف الحكومة ٠ ولا أدل على هذا كله من شدة احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين ٠

ولا نظن أن قلة الكفاءة التى يذكرها اللورد فى تقريره الا نتيجة التعليم الناقص ، وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين فى الحكومة ، وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقة لمصلحة بريطانيا العظمى ، لأن اللورد كان ينظر فى كل أمر الى مصلحة دولته قبل كل شيء : سنة الوطنى الغيور على وطنه ٠

وانه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الاسلامية وعن وجود التعصب لها فى القطر المصرى ، مع أن التعصب ليس له فيه أثر على الاطلاق ، ولكن المصلحة البريطانية ، تريد أن تمثله هائلا مخيفا ٠ ومن هذا الطراز أيضا كل عمل وكل اتفاق ، وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسى الانجليزى العظيم ٠

وربما كان فى وسع اللورد أن يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التى حصل عليها ٠٠ ولو أنه صرف همته أيضا فى كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم ، ولو أنه وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجا مفيدا للامة ، ودفع عن المعارف العمومية من كان يناهضها ، واعتمد فى الاصلاح على أكفاء المصريين ، ورشحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ، ورغب عن محو الجنسية المصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر ٠

لا شك أنه بذلك كان يكسب لدولته صداقة الأمة المصرية ، ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نمو الحرية الشخصية واحترام الحق والمساواة بين طبقات الأمة ٠

خصائص السياسة الانجليزية

للسياسة الانجليزية عدة خصائص أو بالأولى عـــدة قــوى متماسـكة متضامنة يتألف من مجمـــوعها تلك السياسة التى تحكم على خمس العــالم ٠ واحدى تلك الميــزات أنهـــا لا تنقـــل سفيرا فى دولة ولا حاكمـــا فى مســـتعمرة ولا معتمـــدا فى بلد ، الا اذا قضـت الدواعى القاهرة كما حدث للورد كرومر معتمـدها فى القـــاهرة ٠٠ فـان هـــذا الســـياسى الكبيـر يقيـــم فى العاصـمة المصرية منـذ بضـــعة وعشرين عـاما ٠ ولــولا طول اقامته لما تمـكن من اظهـــار مقـــدرته لأن النقـــل يقطـــع على السياسى سلسلة أفكاره التى يتمـكن بهـــا من الصعود الى أعـلى مراتب العـــلاء ٠

فلورد كرومر كان كبيرا بثلاث : مقدرته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قــواها ، وسعة الوقت الذى انفسح له فى مصر ٠ وكان من يرسل نظرة شاملة الى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمدا لدولته فى هـذا الوادى ، يجد أن تلك المزية فى السياسة الانجليزية ساعدته أعظم مساعدة لأنها مكنته من اتمام سلسلة أعماله حلقـة فحلقة ، والرجل كان يشهد له الخصوم قبل الأحباب بأنه بعيـد مرمى النظر ، طويل حبل الصبر ، فكان كل عمل يأتيه تمهيدا لمـا يأتى بعـده ، وتوطئة للغرض الذى وضـــعه نصب عينيه ، فمـا وافق على ترك السودان فى أوائل عهد الاحتلال الا ليبقى استئناف الحملة على السودان وسـيلة جديدة بين يدى الاحتـــلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانجليزية عند الفرصة الموافقة ، وقد عرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير القـائد الفرنسى مارشان نحـو الســـودان المصرى ٠ وما عقـــد بعد فاشـودة من الاتفـاق السـودانى مع فرنسا الا ليزيل ما بقى من آثار الاستياء فى نفوس الفرنسيين بعد تلك الحـادثة ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتـــلال

فى المالية داخل القطر ، واطلاق يد حكومته من الوجهة السياسية ، فكان له ما أراد باتفاق سـنة ١٩٠٤ مع فرنسـا ، ثم بموافقة سائر الدول صاحبات الشأن فى صندوق الدين على ما يتعلق بمصر ، فتزعزع من تلك الساعة أساس هذا الصندوق .

وما مد اللورد يمين المساعدة فى ذاك الاتفاق اكتفـاء بمزاياه فقط ، بل قال فى نفسـه نحن نغنم ما يقـدمه من المزايا السياسية والمادية ، ثم نجعله تمهيدا جديدا لمشروع آخر عظيم هو تغيـر تلك الامتيازات فى مصر ، وحصر السلطة التشريعية فى قبضة بريطانيا، وما نيل هذا المراد بالأمر المستحيل ما دام الاتفـاق الودى موجودا بين لنـدن وباريس .

ردى
على اللورد كرومر

★ المصريون فى رأى كـــرومر
★ فكرة الجــامعة الاسلامية
★ ليس عنــدنا تعصب دينى

المصريون فى رأى اللورد كرومر

على أثر استقالة اللورد كرومر ، نشر تقريرا عن آرائه وأفكاره وما قام به من أعمال فى القطـر المصرى ، وقــد تناول هذا التقرير طبيعة المصريين وأخلاقهم وأفكارهم ، كما تناول ميولهم نحـــو الجامعة الاسلامية التى كانت تجول فى خواطر بعض المصريين فى ذلك الحين · وقــد قمت فى مايو سنة ١٩٠٧ بالرد على ما حواه هذا التقرير من أخطاء وادعاءات · وانى ألخص هذا الرد فى الصفحات التـــالية :

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقى على العموم من جهة الأخلاق الثابتة وآثار التطور المدنى فى تلك الأخلاق ، ولا من جهـــة كفاءته السياسية لتدبير شئونه وحكم نفسه ، ولا من جهـــة تاريخ الشرق فى التمدن ، ولا من جهة أن اليابان من بلاد الشرق كما استثناها اللورد كرومر فى تقريره معتذرا بعدم معرفتها ٠٠ ولكنا نتعـــرض الى تفسير تلك الجمـــلة المبهمـــة الكثيرة المعـــانى

القليلة الألفاظ التى صدر بها هذا الموضوع فى تقرير اللورد ..

قال الأستاذ سايس : « ان الذين أقاموا فى الشرق وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم أنه يستحيل مطلقا على الأوربى أن يتحد فى النظر مع الشرقى . ومن المحقق أن الأوربى بادىء الأمر يظن أنه هو والشرقى يتفاهمان ولكنه يأتي وقت ـ عاجلا أو آجلا ـ يرى الأوربى نفسه يحس فجأة أن ذلك كان حلم نائم ، ويجده أمام انسان ذى ملكات عقلية غريبة بالمرة حتى ليظنه من سكان زحل » .

وبهذا الرأى يدين اللورد كرومر ، ويحكم به على الشرقيين الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين .

صدق الأستاذ سايس اذا كان قوله منصرفا الى أن الأخوين الشرقى والغربى مختلفان فى النظر جدا فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية . أو بعبارة أخرى أن الشرقى بذكائه وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوه القليل الاضطرابات ، وطبيعة أوطانه ، وما ألفه من التقاليد الدينية العريقة فى نفسه ومواعظ أسلافه الغالب فيها تفضيل الزهاد . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الأدبية كالاحسان والكرم والوفاء والاخلاص الدينى المقام الأول فى حياته الدنيا ، ويفضلها على المنافع المادية .. فعيب الشرقى قد يكون فى سهولة أخلاقه وسلاسة انقياده ، كما وصف به أرسطو سكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضى صحة الانتاج ، ولكنه عاب عليهم ما ينتجه تأصل طبائع الاستبداد فى حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد أنه أراد بقوله الاشارة الى تلك الفضائل .. خصوصا أنه ليس فى مقام مدح الشرقى ، ولكن الذى يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى أنه يريد بيان مسألتين :

أولاهما : ان أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية ، وأقام على ذلك دليلا هو أن أفكارهم بعيدة عن تطبيق هذه القاعدة : « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » ·· لأن بعضهم يظهر له الرغبة فى الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتلال · وأن أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انجليزى لتقسيم الماء · وبعضهم طلب قاضيا انجليزيا للفصل فى قضية ·· ولا نتعرض هنا لذكر الأشياء التى حملت هؤلاء الأشخاص على مثل هذه الطلبات على فرض أن طلباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعا · بل نرجىء هذا البحث الى الفصل الخاص بالموظفين ·· وغاية ما نورده هنا هو مناقشة القاعدة « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » ·

وجد الاحتلال الانجليزى فى مصر بعلة اطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصالح الأوربية ، ثم تدرجت العلة الى اصلاح شئون الأمة المصرية واعدادها لتحكم نفسها بنفسها ، وليأمن الانجليز على حقوقهم التى كسبوها فى مصر ·· ثم ينصرف عنها الاحتلال ·

متى كان هذا هو غرض الاحتلال ، وكانت أعمال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصرى الذى يرضى بالنتائج (أى بالاصلاح الذى لأجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة ·

أما وقد رأى المصرى رأى العين أن الاحتلال لم يثبت له بالحس أن علة وجوده فى مصر هو تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال فى مصر بونا بعيدا فأشكل عليه الأمر الى حد أن المصرى المنصف الكثير التدبر والتروى ، الذى لا يشوب حكمه على الأمور فى مصر غرض من الأهواء ، يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله ·· يقع

في روعه أن للاحتلال مقصدا خفيا غير ما يقول الساسة الانجليز · ولا شك في أن مثل هذا معذور اذا رضي بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذي أشكل المقصود منه على العقول ·

بشر المصري آماله حين رأى احترام الحكومة للحرية الشخصية التي نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها ، والقيام بالأعمال النافعة ، ولكنه لم يلبث أن رأى الاحتلال بعد ذلك بقليل قد ظهر في كثير من المواطن بمظهر المعاند ، فأخذ أولا يقتسم هو والخديوية المصرية آراء الناس وميولهم ، فأخذ الناس أيضا بمقتضى هذه المعاندة بين السلطتين أن يلتجيء كل الى ما يرى في الالتجاء اليه مصلحته الذاتية ، لأن المصلحة العامة هي في ألا يلتجيء الناس الى أحد الطرفين دون الآخر ، لأن انتشار ذلك يضيع شخصية الأمة، ويجعلها كما كانت لا حق لها الا الطاعة للامير (ان سميت الطاعة حقا) ـ ولا ينكر أحد أن تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتخلل كثيرا من الذين لا يهمهم الا مصالحهم أو رواتبهم ، ثم التفت الى التعليم العام في المدارس الأميرية فوصل بها الى هذا الحد الذي نراه اليوم ، والذي جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الاكفاء بل ندرتهم · ثم مال الى النفوذ الشخصي للحكام الوطنيين فجردهم منه ، وانحصر عملهم في الطاعة لغيرهم من الانجليز سواء أكانوا رؤساء أم مرءوسين · ثم لم يستبدله بمشاركة الأمة له في الحكم ·· ·· فاعتقد المصريون أو أغلبهم ان الاحتلال هو لمصلحة انجلترا وأوربا بالذات ، حتى لقد غلا بعضهم في تقدير فهمه العدل الذي جرى على يديه الاحتلال ، فقال ان انجلترا مهما كانت نياتها لمصر ، لا يمكنها الا أن تعدل ما دامت ترى أن لا مصلحة لها في الظلم ·

فهل يكون المصري غير منتج اذا بنى فكره على الأعمال المشاهدة من خير وشر ، واستنتج من هذه الأعمال نتيجتها اللازمة،

وهى أن الاحتلال قد جاء ببعض الفوائد ، ولكن تمشــيه على طريقة حرمان الأمة من الحياة السياسية خطر على الأمة يوجد الضـــجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال ، كما قدمنا · فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهى المطلب) من الصعوبة بحيث لا يمكن تطبيقها من غير تعسف الا اذا ابان الاحتلال لمصر أنه يسعى فى منح مصر حياة سياسية بالتدريج · والمؤمل أنه يعمل على ذلك · ولا ينكر منصف أن الحكومة اهتمت فى هذه السنين الأخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقـــات الفلاحين ، ونجحت فى تذليل كثير من الصعوبات التى كانت تقف فى طريق تعليم البنات ·· ولو أضافت الى ذلك منح الأمة شـيئا من الاشتراك معها فى العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وأنه لا يقيم الا ريثما تصلح مصر لحكم نفسها بنفسها ، ولأمكن بعـــد ذلك القول بحق أن من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » ·

ولكن هناك أمرا آخر لا يصح اغفاله ، لأنه قد زاد من الاحتلال ابهاما على ابهام وهو ما ذكره اللورد كرومر فى خطبته الأخيرة فى حفلة الوداع ·· تلك الخطبة التى هى منصبة فى أغلب معانيها على الغرض السياسى الخطر الذى يحاول اقناع العالم به ، وهـــو جعل مصر مستعمرة أوربية مختلطة يكون للاوربيين فيها الغنم ، وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الأوربيين أن صرح فى خطابه بأن الاحتلال باق فى مصر الى ما شاء الله ، فكان فى هذا التصريح التباس جديد على الناس ·· ولكن مع ذلك نرى أن هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيرا جوهريا فى السياسة المصرية لأن وقت التفكير فيه لم يحن بعـــد ··

ومن هذا يرى القارىء أن عدم صحة الفكر المصرى فى الانتاج لم تأت من طبيعة له ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من امكان الحكم على مقاصد انجلترا من الاحتلال ·

الجامعة الاسلامية

المسألة الثانية هى : الجامعة الاسلامية ·

ان فكرة الوحدة الاسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الأمور العامة بشىء من التدقيق · ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث · فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوربية على شىء يضر بمصلحة مصر ، أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال الى الأبد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التى استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة اسلامية ، وأن أوربا لا تساعد فى الشرق الا الأمم المسيحية ، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة كما فى أوربا هذه الوحدة التى يتخيلون وجودها ، وأنها كانت العامل لأوربا على التداخل فى أمر ولايات البلقان وأرمينية · نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد فى اللغة كلمة جامعة مسيحية « بانيكر يستيانزم » كما خلقت كلمة جامعة اسلامية « بانيسلامزم » ·

على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلتيهما وجودا فى العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء ·· فليس لأوربا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدى الى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوربيين · بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسه الأوربية فى الشرق ·

أما كون الجامعة الاسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو انها مقصد من المقاصد التى يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لا دليل عليه مطلقا ·· كما أنه لو حاول ايجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه ·

علمنا التاريخ ، وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس الا المنافع ، فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية ، أو وحدة في الدين • وأن أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم في خلافة أمير المؤمنين على بن أبي طالب مما هو مشهود ومأثور • ان أحسن ما قرأنا في الجامعة الاسلامية ، هو ما ذكره الأستاذ براون في خطبته التي ألقاها في جامعة كمبردج سنة ١٩٠٢ وابان فيها أن الجامعة الاسلامية هي خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس في فينا • قال الأستاذ براون :

« انه ليس من السهل تعريف مسنى البانيسلايزم بعبارة تنطبق على المثل العربي المشهور « خير الكلام ما قل ودل » ومع الأسف انني استشرت أحد أصدقائي فد هذا الموضوع ، فعرفني معنى « بانيسلاميزم » بلا تردد في بضع كلمات ، وهي « أن البانسلامزم هي خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس في فينا » •

وأن تجسيم الأمر في نفس عميد الاحتلال في مصر الى حد أنه قد جعله تعصبا للدين لا محل له بالمرة ، الا اذا كان الغرض منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الأوربيين حتى لقد جره ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامي ، وادعى انها غير صالحة الى أن تطبق في هذا الزمان •

قال ذلك بتصريحات كان من عادته أن يتوقاها مراعاة لاحترام الدين الاسلامي وتفاديا من جرح شعور المسلمين • نقول على غير عادته لأنه كثير الاحترام للدين الاسلامي ، كثير الحيطة في التعبير عنه بشيء يتعلق به ، وكل تصريحاته مستفيضة في هذا المعنى ، فقد قال في خطبته في كلية غوردون في ٤ يناير سنه ١٨٩٩ :

« ولا يخفى عليكم أن جلالة الملكة ورعاياها المسيحيين من أشد الناس استمساكا بعروة دينهم ، ولذلك فهم يعـرفون وجوب احترام دين غيرهم ٠ على أن حكم جلالتها يظلل من المسلمين عددا أكثر مما يظلل حكم أى ملك في الأرض ، وهم مع ذلك فى عيشة هنية ، وسعادة تحت حكمهـا الكثير الخيـرات ، دينهم موقر ، وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام ٠٠ الخ » ٠

وقد يؤثر عنه أنه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم الا اذا تمسكوا بدينهم الصحيح ٠ وقد ذكر فى تقرير سنة ١٩٠٥ ، وفى تقرير سنة ١٩٠٦ ، ما يفيد امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتخليصه من الدخائل التى متى خلص منها كان موافقا لحاجات الناس فى التمدن الحديث ٠ وخص منهم بالذكر فقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد أحمد منشىء كلية عليكرة ٠ ولهذه المناسبة نورد للقارىء نص الخطاب الذى ألقاه اللورد كرزون فى كلية عليكرة فى شهر مايو سنة ١٩٠١ مشيرا فيه الى فوائد الدين الاسلامى ، والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية :

« نعم يمكن للمسلمين أن يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون ، وهو ما عرفوه مرة قبل هذا الوقت فى أيام كان فيها للمسلمين السطوة والسلطان ، وكان قضاتهم يحكمون بالعدل بين الناس ، وفلاسفتهم وائمتهم يألفون الكتب النفيسة » ٠

وأن عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامى بأى صورة ، ومخالفة لبعض ساسة الانجليز مثل اللورد كرزون فى الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمح من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر ، كل ذلك جعل النـاس

يكادون يجمعون على أن اللورد أراد أن يصور المصريين للانجليز خصوصا ، ولأوربا عموما بصورة أمة غير قابلة للرقى لتسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التى يحاول محوها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية ، وعزا لها ما عزا .

التعصب الدينى

بعد أن رأى القارىء أن الجامعة الاسلامية لا أثر لها فى مصر ولا نظن لها وجود فى غير مصر ، وأنهـا على هـذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب ، ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوربية يتخذونها سترا يستر أعمالهم فى الشرق ·· قد يكون من المفيد جدا فى هذا المقام أن نتعرض لمناقشة تلك التهمة الثانية التى تربطها بالجامعة الاسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعـلول ، وهى تهمـة التعصـب الدينى ·

والدين الاسلامى يأمر بالتعاون والتعاضد والائتـلاف بين أفراد الأمة ، كما يأمر بالعدل والاحسان ، ويوصى خيرا بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة فى الفقـه · وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائن الذى يعبر عنه الأفرنج « بالفاناتيزم » ·

أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحـدة الاعتقـاد حب ومعاونة ، تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التى تصورها لهم أفهامهم فى الدين · وأن هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التى تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة · ونظن أن الأوربيين لم يقصدوا يوما « بالفاناتيزم » هذه الجاذبية بوجه ما ، ولكنهم يقصدون بالتعصب الدينى معنى عدائيا هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم ، والتربص بهم فلا يبقون عليهم ·· وهـذا المعنى لا أصل له فى الدين ، كما لا أصل له فى نفوس المسلمين

الذين كل جنايتهم ٤ أمام أوربا أنهم أخذوا يفكرون فى أن ترقى عقولهم بالتعليم ونفوسهم بالحرية ، وأن يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقى العقلى ليسابقوا غيرهم فى الحياة المدنية · وأنهم يتعلمون الآن من الأوربيين ، فكيف يمكن أن يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ليبعدوهم عن كل مدنية ، وليسهلوا لأنفسهم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم · أظن أن وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع ، وأن المسلمين هم أولى بأن يتهموا الأوربيين بالتعصب ، ولكنهم لا يريدون ، ولا يستطيعون ·

التعصب الدينى شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده الا بآثاره · ومن المشاهد أن الأقباط فى مصر يعيشون مع المسلمين مختلطين فى المصالح والمساكن متكاتفين فى المزارع والأعمال ، متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين فى الوظائف والمرافق · ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجهم على اخوانهم أو أظهروا يوما بما يقتضيه وجود التعصب الدينى فى النفوس من الحقد الذى يقدح زنده الاشتراك فى المصالح · ومن المشاهد أيضا أن الرومى يجىء به طلب الرزق الى مصر منفردا ·· يدخل احدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف الى كبار أهلها فيفسحون له فى مساكنها ملجأ يأوى اليه ، فلا يزال بتجارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن آجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ، ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمان الا هو دائن لأغلب أهل البلد ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمال بسطاء · وكل هذا لم يحرك فى نفوسهم ذلك التعصب الدينى الموهوم · أليس ذلك الا لأن هذا التعصب عديم الأثر فى نفوس مسلمى مصر ؟

أقام اللورد كرومر على هذه التهمة الشنعاء التى اتهم بها المصريين دليلين ، أحدهما مسطور فى تقريره عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة الهماميل فى الاسكندرية ، وكان فيها أن مصريا ويونانيا تشاجرا على مشترى قطعة من الجبن ، فطعن اليونانى المصرى طعنة بسكين فقضى عليه • وأعقب ذلك أن يونانيا أراد قتل يونانى آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنيا ، فمات • فاجتمع رعاع الفريقين • وقال بعض فريق المسلمين « اقتلوا النصارى » •

والثانى حادثة العقبة التى جعلت بعض الجرائد أو بعض الناس يظهرون ميلهم الى تركيا بمناسبة الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية فى تلك الناحية •

أما حادثة الحقبة •• فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى الطبيعية أن الناس ينتصرون للمظلوم خصوصا اذا كان من بنى جنسهم • وقد روت روتر فى ذلك الحين أن روسيا فى باريس أطلق الرصاص على جنديين فرنسيين فهم الأهالى بقتله لولا أن رجال البوليس أنقذوه من أيديهم ، ولم يقل أحد بأن انتصار الأهالى فى باريس للجنديين كان سببه التعصب الدينى ، فانتصار الوطنيين للقتيل ، وانتصار الأروام وغيرهم للقاتل هو من الأمور الطبيعيه التى لا تثبت وجود التعصب الدينى عند المصريين • لم يبق بعدئذ الا قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصائحين بهذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء • ولكن لفظة النصارى فى لغة الرعاع مرادف للافرنج أو نحو ذلك ، فان كان فى نفوسهم عصبية لكانت عصبية جنسية لا عصبية دينية •

أما حادثة العقبة •• فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء إلى سبب الحركة الفكرية التى جرت فى مصر أبان حادث العقبة ، كان

من جرائها أن أساء الانجليز الظن بالمصريين وافتكروا أن هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركى بالاحتلال الانجليزى · وأن مثار هذا التبرم هو التعصب الدينى من المصريين للترك · وقد جر هذا الفهم الى نتائج مشئومة ·· ولكنا نظن أن الانجليز متى عرفوا السبب الحقيقى لهذه الحركة وانصفوا ، يقلعون عن تهمة المصريين بالتعصب ، تلك التهمة التى تسوؤنا أكثر مما ساءتهم ·

نلتمس علل الأشياء بقياسها على أشباهها ونظائرها · فاذا أردنا أن نلتمس علة هذه الحركة الفكرية الحقيقية التى وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا أن نرجع بها الى نظائرها من الحوادث · ولا نجد حادثة أشبه بها من جميع الوجوه أكثر من حادثة فاشودة · فان الانجليز كانوا يدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية لمصلحتها ومصلحة الحكومة الانجليزية ، كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فاشودة باسم الحكومتين المصرية والانجليزية ولمصلحتهما أيضا · وكان النزاع بين الانجليز وبين الترك على الحدود الشرقية كما كان بينهم وبين الفرنسيين على الحدود الجنوبية المصرية · فماذا كان ميل المصريين وقتئذ بالنسبة لحادثة فاشودة ؟

كان فى مصر حركة أفكار تتجه فى مجموعها الى اجتذاب الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور ، وما مصدره ؟

هل كان مصدره فى النفوس أيضا تعصبا دينيا لفرنسا ، أوجب استبدال الاحتلال الفرنسى بالاحتلال الانجليزى ؟

لا هذا ولا ذاك ·· ولكن من الطبائع العمرانية أن الأمة متى أبعدت عن ادارة حكومتها وجهلت مقاصد حكامها ، أو ظهر لها

منهم عين لاستئثـــار بالمنفعـــة دونهـــا ، وحملهـــا على ما تهوى وما لا تهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعو بها الى أن تتبرم بحكومتها اذا كانت حكومة وطنية ، فاذا كانت أجنبية فيكون التبرم والمقاطعة من باب أولى ٠

ومثال ذلك الحركة الفكرية للامة فى أوائل الثورة العسكريه سنة ١٨٨٢ فان الأمة كانت قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال الفعلى الشركسى وأن كان قلقها هذا لم يتعد حد القلق ، لأنه لم تكن لها فى الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا مشاركة حقيقية ٠ فهل كان هذا القلق والضجر من حال الحكومة ، ومن قانون العســـكرية ، مترتبا على تعصب دينى من المسلمين ضد المسلمين ؟ لا شىء من ذلك أيضا فلو استقرأنا كل العلل الممكنة التى ولدت حركة الأفكار فى سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فاشودة ، وسنة ١٩٠٦ بمناسبة حادثة العقبة استقراء صحيحا خاليا عن الغرض ، لوجدنا أن العلة فى كل ذلك واحدة ، وهى قلق من عدم اشراك الحكومه اياها فى شىء من الحكم ٠

ولكن ذوى الأغراض ـ عن جهل أو سوء قصد ـ جـاءوا يصورون تلك الحركة الفكرية لعميد الاحتلال فى صورة التعصب الدينى ، وهو قد صورها فى الصيف الماضى لأوربا بصورة مزعجة ـ كل ذلك ، والأمة هادئة بعيدة عن التعصب وآثاره ٠

الفصل السادس

طالبنا بالاستقلال التام
فقالوا خرجتم على الباب العالى

الاستقلال والدستور

بعد ظهور صحيفة الجريدة ببضعة أشهر تألف « حزب الأمة » فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ · وقد تضمن منهاجه عدة مبادىء فى رأسها المطالبة بالاستقلال التام(١) والمطالبة بالدستور ـ وأقل درجاته توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ، ومجالس المديريات ، تدرجا الى ايجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطات الشعب · وقد اختير محمود سليمان باشا رئيسا لهذا الحزب ، وحسن عبد الرزاق باشا الكبير ، وعلى شعراوى باشا وكيلين له ، واخترت أنا سكرتيرا عاما ·

---

(١) حينما أعلن الحزب هذه المبادىء كان من المعترضين على مبدأ الاستقلال التام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، واتهم الحزب بالخروج على الدولة العثمانية صاحبة السيادة الرسمية على مصر فى ذلك الحين ، فرد عليه بأن الحزب يقول الاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل ، وهناك فرق بين الكمال والتمام يظهر فى قول القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى » فسكت الشيخ على يوسف بهذه الحجة · وانى لا زلت آسفا حتى اليوم لذلك الرد ، فان الاستقلال الكامل أشمل من الاستقلال التام . لأن المعنى فى « أتممت عليكم نعمتى » أى أسبغت عليكم نعمتى ، ولا يلزم أن يكون أكملت ·

وقد اتخذت بعض الصحف من مطالبة هذا الحزب بالاستقلال التام ذريعة للتشنيع عليه ، واتهامه بالخروج على الباب العالى صاحب السيادة على مصر فى ذلك الحين ، ولكننا لم نأبه لهذه التهمة ، ومضينا فى طريقنا ·· وكان لنا كثرة أو شبهها فى مجلس شورى القوانين ، فأخذت فى مهاجمة الحكومة الاستبدادية والمطالبة بالدستور ، وقدم محمود سليمان باشا وحسن عبد الرازق باشا الى رئيس الحكومة مشروعا بتوسيع اختصاص مجالس المديريات · فقدمت الحكومة مشروعا آخر اقل سعة من مشروعنا ، وقد سرنا أنها صارت فى هذه الطريق للوصول الى تحقيق ارادة الأمة ، والتحرر من سلطة الحكومة الشخصية ·· تلك الحكومة التى لا تستمد وجودها الا من أصل واحد هو عبادة البسالة ، عبادة القوى ، عبادة القهر والغلبة والاستبداد ، وما يجتمع حول تلك العبادة من الأوهام التى تتجسم فى رؤوس العامة ، وقد جاء العلم ، ففتح للناس أسرار العالم وأصبح العالم بذلك هو موضوع الاعجاب والاكبار ، وصار العظماء أمام هذا العالم الطبيعى وقوته لا نصيب لهم من ذلك الاعجاب والاكبار ، فتجردوا بهذه المثابة عن الأصل الذى كانوا يستخدمونه فى انشاء الممالك المستبدة ، ولكنه مع ذلك قد بقى فى نفوس الناس طرف غير قليل من الأوهام القديمة ·· تلك الأوهام التى كانت فى كثير من الأزمات كافية لاخضاعهم لشخص واحد يتصرف فى دمائهم وأموالهم من غير أن ينزل لسماع أقوالهم أو الاصغاء لرغباتهم ، ولذلك كنا ننادى بتوسيع اختصاص اختصاص الهيئات النيابية توصلا للحصول على الدستور الذى تتقرر به سلطة الحكومة الشخصية أو حكومة الفرد ·

انتخابى لمجلس المديرية

وفى عام ١٩٠٨ أراد حزبى أن أكون مع اعضائه فى مجلس شورى القوانين ، فرشحت نفسى لمجلس مديرية الدقهلية ، لأن عضو

مجلس الشــورى كان ينتخبه أعضاء مجلس المديرية من بينهم فلم أنجح فى هذا الانتخاب ، ثم رشحت نفسى فى الانتخاب الذى بعده سنة ١٩١١ فنجحت ، ولكن طعن فى بأنى لست مقيما فى بلدتى « برقين » وألغت محكمة الزقازيق الانتخاب فعدت للانتخاب مرة أخرى ، فنجحت بأصوات أكثر من الأولى ٠ وكان الخديو فيما يقال يرتاح الى الطعن فى انتخابى ٠ وذات يوم خاطبنى بالتليفون عبد الله وهبى باشا ودعانى الى الشاى فى بيته ، فوجدت عنده جاد بك مصطفى الطاعن فى انتخابى ، فتحادثنا فى شئون الانتخاب ، فقال لى رحمة الله : « ان صداقتى لابيك ، وتقديرى لك يجعلانى أتنازل عن الطعن بشرط أن تأتى أنت ووالدك ، وشكرى باشا المدير للغداء عندى فى قريتى « صدفة » يوم الجمعة المقبل » ٠

فأجبته الى رغبته ٠٠

وفى ذلك الوقت عاد الدكتور محمد حسين هيكل من أوربا بعد أن حصل على اجازة الدكتوراة ، أخذته معه فى زيارة لكثير من القرى لأقف على حالة التعليم الأولى ، وأقدم بذلك تقريرا لمجلس المديرية ، وقد فعلت ٠

ومن طريف ما يذكر هنا ، أننا مررنا بكتاب فى احدى القرى ، فوجدنا قلة من عدد التلاميذ ، فقلت للشيخ : « أظن أنك صرفت الأطفال لتنقية الدودة » ٠

فقال : « ليس فى بلدنا دودة ، لأنى أذنت الآذان الشرعى فى الجهات الأربع للقرية ، فامتنعت الدودة باذن الله تعالى » ٠

قال هذا وكنا نشم رائحة الدودة حولنا فى المزارع !

بيع الرتب والنياشين

قلت أن الحكومة الشخصية ـ أو حكومة الفرد ـ تستمد وجودها من عبــادة البشــالة والغلبة والاســتبداد ٠ وأزيــد

هنا أن الفرد من أبناء الأمة فى ظل هذه الحكومة ، ليست له حياة ظاهرة ولا شرف معترف به الا بالاضافة لشخص الحاكم . ومادام الأفندى لا ينقلب زيه يوم العيد الى زى بطل من أبطال القرون الوسطى ، كل صدره قصب يبرق ، وتعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفا لا يستطيع أن يجرده ، ولا السيف صالح أن يجرد . فمهما يكن له من شرف المولد ، ورفعة الأخلاق ، وسعة العيش فانه لا يكون شريفا الا اذا حصل على رتبة أو نيشان .

من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف سنة ١٩٠٨ وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة كما يكون بين رجال الجيش ، ولا على خدمة كبرى من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون ألقاب التشريف . وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف يأخذ المؤخر . وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها عنهم ، فهى تلعب بأهوائهم وشهواتهم وتأسرهم بها .. وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومة الحديثة ، فكانت أثرا من الآثار الاستبدادية الأولى . وقد عرفت الحكومات الديمقراطية الراقية أن تتخلص منها ، ولكنها ما تزال فى بعض الشعوب من أهم المؤثرات فى الأخلاق خصوصا فى الشعب المصرى .

سياسة الوفاق وسياسة الخلاف

فى سنة ١٩٠٨ أيضا كان قد مضى عام على تعيين سير الدون غورست معتمدا بريطانيا فى مصر خلفا للورد كرومر الذى اعتزل منصبه فى ابريل سنة ١٩٠٧ . وقد عرف بعهد سياسة الوفاق .

وهى السياسة التى عادت للمرة الثانية بعد أن حلت محلها سياسة الخلاف بين الخديوى عباس واللورد كرومر ٠

وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديوى محمد توفيق ، فقد دخل الانجليز مصر على وفاق بينه وبينهم فألغوا الجيش المصرى ، واستبدلوا به جيشا صغيرا ضباطه من الانجليز ، ثم محوا العلوم الحربية الواسعة فى المدرسة الحربية ، فبدلا من أن يرقوها حتى تخرج ضباطا كما تخرج مدارس انجلترا وفرنسا قصروها على تخريج ضباط بدرجة ٠٠ هم أنفسهم يريدونها ، درجة تجعل الضابط المصرى مرؤوسا دائما ٠ ثم أخذوا يخرجون من الجيش العامل كل ضباط الانجليز ٠ وقد دل هذا التصرف فى الجيش على أن الغرض منه اضعاف مصر لا تقويتها ٠ وتلك كانت احدى نتائج الوفاق والتسليم للانجليز بعمل ما يريدون ٠

لقد جاء الانجليز مصر فوجدوا فيها جيشا ثائرا واستعاضوا به غيره ، وألغوا كذلك مجلس النواب ٠٠ وكان حقهم أن يبقوه فلم يفعلوا ، بل يستعيضوا به غيره ، نقول على وجه التسامح أنهم ألفوا مجلس شورى ضئيلا ليكبر بالزمان فمضى كل عهد سياسة الوفاق ، ولم يفكر الانجليز فى تعديل مادة من مواده حتى يسيروا به الى الأمام ٠ وذلك يدل على أنهم كرهوا لمصر أن تتدرج فى الحكم الدستورى ٠

واذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية وعملوا لتقوية الحكومة بأى شكل ، فكان من مقتضى ذلك أنهم حين أضعفوا حكومة الدستور أن يقووا الحكومة الشخصية ٠ أى الحكومة الخديوية ولكنهم لم يفعلوا بل أضعفوها هى أيضا ٠

ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحقانية وقتذاك ، سعادة حسين فخرى باشا ، رفع تقريرا الى مجلس النظار عن المستشار

القضائى مستر سكوت · وكان الخديو توفيق فى سياحته بالوجه القبلى ، فانعقد مجلس النظار وقرر عدم استمرار المستر سكوت مستشارا فى الحقانية ، وأرسل بذلك للخديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتياح ، فلم يكن الا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على الغاء ذلك القرار . ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قلوب النظار المصريين وزيادة الاستسلام من جانب الخديو ، ووقعت الحكومة كلها من ذلك أضعاف السلطة الاهلية سواء فى ذلك سلطة الحكومة وسلطة الأمة ·

كان يجرى كل هذا التصرف الذى من شأنه أعدام كل سلطة أهلية من الأمة والحكومة معا والسياسة العالية تجرى فى مجراها على ها النحو أيضا ، وأكبر الأمثلة على ذلك التخلى عن السودان وتركه ، وكان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا الذى كان أحق وزراء مصر على الاطلاق بالتمجيد ·· ولكنه لم ينجح فاستقال ، وجاءت وزارة نوبار باشا فأخلت السودان · ثم فتح على أنه شركة فى الادارة بين مصر وانجلترا كما تعرفون ·

التقريب من الانجليز

بعد أن جردت الأمة من سلطتها والحكومة الأهلية من هيبتها . آمن المصريون بأن الانجليز طامعون لا مصلحون ، وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى · وأخذ العمد والأعيان يستعيذون فى قضاء أعمالهم غير المتناهية بالتقرب من الانجليز تقربا وقتيا دعا اليه حب قضاء المصلحة الشخصية من القادر القاهر ، ولكن هذا التقرب من طبيعته أن يزول بانقضاء تلك المصلحة ، ثم يتجدد كلما جاءت مصلحة جديدة ·· فنتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال وتراخ مفاصل الوطنية الصحيحة ، وانصرفت النفوس طبعا عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل

تصرف سيء للانجليز الى رضاه عنه واقراره عليه · وكان اللورد كرومر والجرائد الانجليزية لا تدع فرصة تمر الا انتهزتها للثناء على الخديو وأطرافه بأبلغ الاطراء ·

وقد بقيت سياسة الوفاق فى مصر ، وزادت وضوحا منذ فشلت معاهدة سنة ١٨٨٧ لتحديد شروط الجلاء · وكان للانجليز فى هذه السياسة الغنم وعلم مصر الغرم ·· للانجليز فيها السؤدد والمنفعة ، وللمصريين فيها المذلك والخسارة · وانتهى عهدها الأول بوفاة الخديو توفيق · وابتداء عهد سياسة الخلاف منذ توليه الخديو عباس حلمى الثانى على الأريكة المصرية · ثم تجددت سياسة الوفاق ثانية فى عهد تنصيب وزارة نوبار باشا سنة ١٨٩٤ ، ولكن هذا الوفاق الأخير لم يكن بينه وبين الوفاق الحقيقى المبنى على الثقة والمنفعة المتبادلة الا شبه من الطلاء الظاهرى لأنه كان مسببا على الاستسلام للقوة ، ثم لم يلبث أن توتوت العلاقة بين سمو الأمير واللورد كرومر فانكشفت عن جفاء مستحكم الحلقات ، ثم تجددت سياسة الوفاق بعد مبارحة كرومر مصر وتعيين السير ألدون غورست مكانه ، وكان من نتائج هذه السياسة أن تدخل المعتمد البريطانى لم يقل عما كان عليه من قبل ، بل ربما زاد وامتد الى بعض المصالح الأهلية الصرفة ·

قانون المطبوعات

فى سنة ١٩٠٩ أرادت الحكومة بعث قانون المطبوعات الذى كان قد صدر ابان الثورة العرابية ، وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأى ، فحملت أنا وزملائى الصحفيون ، على ذلك القانون حملة قوية ، ولكننا لم نوفق لأن بعض أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية كانوا قد طلبوا شيئا من هذا فيما

سبق ، وعارض فيه اللورد كرومر · ثم لما أريد احياء هـذا القانون وافق عليه الانجليز ووافق عليه مجلس الشورى بالأغلبيـة مع الأسف ·· وفى صيف ذلك العام سافرت الى أوربا للاستشفاء ، وعزمت على مقابلة « سـير أدوارد جـراى » وزير الخارجيـة الانجليزية لأشكو له تصرف الانجليز فى حرية الصحافة · وأعطانى صديقى محمد محمود باشا رحمه الله كتابا لأستاذه المستر سميث عميد كلية « بلبول » بأكسفورد ليقدمنى لوزير الخارجية البريطانية الذى كان تلميذا له · فلما سافرت الى أكسفورد وكان أخى سعيد وقتها طالبا بها ، قابلت المستر سميث فطلب منى أن أكتب مذكرة بما أريد ، ثم نسافر فى اليوم التالى أنا وهو الى لنـدن ليقدمنى الى « السير ادوارد جراى) · وفى اليوم التالى ذهبنا الى لندن ، ثم الى وزارة الخارجية ، فاعتذر الوزير عن اسـتقبالى بسـبب مناورة بحرية ، واحالنى الى وكيل الوزارة ــ وأظنــه المسـتر ماليت ــ فقدمت له المذكرة ، وبينت له وجوه الخطر على الحرية من هذا القانون ، فوعدنى خيرا ·

مد امتياز قناة السويس

وفى نفس السنة ــ ١٩٠٩ ــ أرادت شركة قناة السويس أن تمد امتيازها أربعين سنة جديدة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الى الحكومة المصرية ، وكان المستشار المالى يميل للاخذ بهـذه الفـكرة ، وكذلك « سـير ألدون غورسـت » وبطرس غالى باشا ··· فتحدثت فى ذلك الى حسين رشدى ، وسعد زغلول باشا ، فأحالانى على رئيس الوزارة بطرس باشا وعلى المستشار المالى الانجليزى ، فذهبت الى المستشار ، وأعرضت على المضى فى هذا الموضوع ، وطلبت منه عرضه على الجمعية العمومية ، وهى اكبر هيئة نيابية وقتئذ فى البلاد ، ولكننى لم أوفق لاجابة طلبى فتركته

وذهبت الى رئيس الوزارة فى بيته بالفجالة فاستقبلنى بما كنت أعهده فيه من لطف وأدب ، وحادثته فى الأمر ، وطلبت منه باسم حزب الأمة أن تعرض مسألة امتياز قناة السويس على الجمعيه العمومية ، فأجابنى بقوله : « يا لطفى أما تنزل من السحاب ، لنكون معا على الأرض ؟! »

وأبى أن يقتنع برأيى ، فتركته وسرت فى حملتى على هذا الموضوع · وبعد ذلك أظن أن شركة القناة أشترطت أخذ رأى الجعمية ، لما رأت من هياج الرأى العام ضد هذا المشروع ·· فاستدعانى بالتليفون لأحضر عنده فى وزارة الخارجية ليلقى الى حديثا صحفيا فى مسألة القناة · وعلى ظنى : أنه هو الحديث الوحيد الذى أخذته من وزير أو رئيس وزارة طول مدة اشتغالى بالصحافة ·

ولما دخلت على بطرس باشا ، وجدت عنده فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية ، فبادلنى بطرس باشا قائلا : « هأنذا أجيب طلبكم وأحيل الأمر على الجمعية العمومية تقضى فيه بما تشاء » ·

وكانت الجريدة هى أول من نشر هذا الخبر · وقد عرض الموضوع على الجمعية ، فقررت رفضه ·

بعد ذلك فى سنة ١٩١٠ ، كنت فى منزل صديقى على شعراوى باشا ، ومعنا فتحى زغلول باشا ، وابراهيم الهلباوى بك ، فدخل علينا بطرس باشا غالى بلا موعد سابق ولا استئذان ، لأنه كان صديقا لشعراوى باشا ، فقال لنا : « علام تتآمرون ؟ ·· »·

فقال الهلباوى بك : « نتآمر على الحكومة ، لأننا نريد اثارة البلاد لطلب الدستور » ·

فقال شعراوى باشا : « من أين جئت يابطرس باشا ؟ »
فأجاب : « كنت أتنزه ماشيا فى الجزيرة » فلامه شعراوى باشا على أنه يسير بلا حرس ، فقال بطرس : « قد يكون معك الحق ، لأنى تلقيت منذ أيام كتبا يهددنى فيها كاتبوها بالقتل ٠٠ ! » ٠
فقلت له : « يا باشا أظن أن الذى يريد أن يقتل لا يهدد ٠٠ ! » ٠
وقد أخطأت الظن لأنه رحمه الله قتل بعد ذلك بأيام ٠٠ وكان لهذا الحادث رنة أسف بليغ ، وعلى الخصوص فى البيئات المتعلمة ٠

قضية الجريدة

قدمت أن الخديو عباس حلمى لم يكن راضيا عن شركه « الجريدة » ولا عن حزب الأمة ، وأن بطانته كانت تعارض « الجريدة » وتعمل لحل الشركة ٠ وقد أفلحت هذه البطانة فى اقناع بعض الشركاء بالخروج على الشركة ، وطلب حلها سنة ١٩١٠ ثم رفع هذا البعض دعوى أمام المحكمة المختلطة طالبا هذا الحل ٠ وقد دفعت مصاريف الدعوى ــ على ما علمت ــ من الخاصة الخديوية ، وأنعم على هؤلاء المدعين بالرتب ٠ وكان المحامى الذى رفع الدعوة هو محامى الخاصة ٠ فكتبت مذكرة بكل هذه التصرفات وأعطيتها للافوكاتو جرين المحامى عن الشركة ٠

وقد كان الأمير حسين كامل (السلطان حسين) رئيسا لمجلس شورى القوانين وقتذاك فدعا محمود باشا سليمان ، وعلى شعراوى باشا ، وأنا ، ولما استقر بنا الجلوس ، قال الأمير حسين : « أنا لا أفهم أنكم ترفعون دعوى على خديو البلاد ! » ٠

فقلت له : « يا أفندينا وأنا كذلك ٠٠ ولكن سمو الخديو هو الذى رفع علينا الدعوة » ٠

وما كنت أسرد له أدلتى حتى دخـل علينـا بطرس غالى باشا رئيس الحكومة ، واتفقنا فى المجلس على أن يطلب المدعون تأجيل الدعوة الى أجل غير مسمى ٠٠ ومازالت مؤجلة حتى الآن !

محاضرات فى « الجريدة »

ـ وقد كانت صحيفة « الجريدة » عدا ما تقوم به من خدمات وطنية وسياسية تقوم برسالة تقافية بين الشباب المتعلم ، فكان يؤم دارها كثير منهم للاستماع الى محاضرات عدد من كبـار الأساتذة والمحامين المصريين ٠ وقد اتفق وقتئذ أن ناظر مدرسه الحقوق الانجليزى ـ وكان أستاذ القانون المدنى بها ـ لم يكن من الحاصلين على شهادة الليسانس بل ســقط فى امتحان الليسانس فى باريس ، فأخذت « الجريدة » تطالب الحكومة أن تستبدل به غيره ، فلم تجب الى طلبها ، فدعوت المرحوم الأستاذ أحمد عبد اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار الجريدة ، فقبل هذه الدعوة ، وكان يؤم دروسه الكثيرون ٠ ومن تلامذته كامل البندارى باشا ، وأحمد صديق باشا ، وغيرهما ٠٠

وفى ذلك العام ـ عام ١٩١٠ ـ وضع حزب الأمـة مشروعا للدستور ، وفكر فى أن يقدم للخديو عريضة من أهالى البلاد بطلب الدستور ، وقد حررت هذه العريضة ، وأخذ الأهالى فى امضائها ٠ وهنا لا أنسى مكرمة للمرحوم حسن باشا رضوان ، وكان وقتئذ مديرا للغربية ، فقد قابلته فى وزارة الداخلية ، وأسررت له الأمر ، وطلبت اليه أن يغض الطرف عن هذا العمل الذى سنبتدىء به فى مديرية الغربية ، فأجابنى : « كلا ٠٠ لن أغض الطرف ٠ بل سأساعد على امضاء العريضة من الأهالى ٠٠ ! » ٠ وقد وفى هذا المدير الوطنى بوعده ٠٠٠ !

الفصل السابع

٤ رجـال عرفتهم

- حسن عاصم باشا
- مصطفى كامل باشا
- قاسم أمين بك
- أحمد عرابى باشا

حسن عاصم باشا

قبل أن تجمعنى الصداقة بالمرحوم حسن عاصم باشا ، جمعنى العمل معه فى النيابة العمومية · وكان وقتئذ « أفوكاتو » عموميا ·· عرفته رئيسا ، وعرفته صديقا ، ثم عرفتـه مستشـارا ، ثم سر تشريفاتى لسمو الخديو عباس حلمى الثانى ، ثم رئيسا للديوان الخديوى · فما وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبـادىء ، وأقـوى تمسكا بنهج الاستقامة من هذا الرجل · فمن عرفه عرف خلقـا صريحا لا يتلون ، وسيرا قويما لا يعوج ، ومبادىء راسخة لا تتغير، حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطرف ، وشدة التمسك بالحق ، ويعدون ذلك عليه جفاء فى الأخلاق ، وما به جفاء ، ولكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش فى ميدان القتال ·

كان عاصم باشا رجلا أسمر اللون ، قصير القامة ، جذاب الطلعة ، مقتصدا فى حركاته عند الحديث ، جهورى الصـوت يميل فى لبسه دائما الى السواد على طراز واحـد ، قورا فى ملبسـه

وقورا فى مجلسه ، لا يخرج الا نادرا ، قليل الضحك كثير التبسم ويمتاز عن كثير من أمثاله بأنه لا يغلو فى ارضاء الناس بالقول ، ولا يعد بعمل مالا يريد ٠

وقد اشتغل رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم لنيابة طنطا ، ثم مفتشا فى لجنة المراقبة ، ثم عين أفوكاتو عموميا ، وبقى منتدبا فى لجنة المراقبة ، فلما طلب اليه مظلوم باشا ناظر الحقانية وقتئذ والسير سكوت مستشارها ، أن يباشر عمله الجديد ٠٠ رفض الاشتغال بوظيفة الافوكاتو متى كانت خلوا من العمل الجدى ، لان مسيو لوجريل لم يكن يريد مشاركة غيره فى العمل ، فوعده الناظر والمستشار أن سيكون له عمل معين ، وأنه لن يبقى الا بضعة أشهر ، ثم يعين نائبا عموميا بدل المسيو جريل ٠

ولكن الحال قد تبدل ، واتهم عاصم بأنه معاد للانجليز ٠٠ فأمر اللورد كرومر المستشار السير سكوت بفصله من وظيفة الافوكاتو العمومى ، وكان سكوت من العدالة فى الأخلاق بحيث يعز عليه تنفيذ هذا الأمر فى حق رجل ، عرف هو والناس أجمعون مكانه من الفضل والعمل ، وموضعه من أصالة الرأى والاستقامة ، فكان المستشار فى مركز حرج بين تنفيذ أمر المعتمد البريطانى ومعاملة عاصم بما يقتضيه العقل وتوجبه المصلحة من أن يرقيه ، كما وعده ، لا أن يفصله من غير ذنب ٠ فبقى الأمر بين البقاء والاقصاء ٠٠ كل هذا وعاصم يعمل بغيرته المعروفة وجده الزائد من غير أن يهتم بفصله أو ترقيته ٠

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق أنه فى هذه الفترة بين الفصل وعدمه وضع مشروعا يقضى بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتبا باليومية فى محكمة الاستئناف التى

غصت بالكتبة الى المعالم الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة الى الموظفين ، فدخل عليه باشكاتب المحكمة بخطاب نقل هـذا الجـم الغفير ، وقال له : « مالك ولهذا العمل ؟ والأمر يفصلك تحت الختم » . فأجاب :

ـ انى لا أشتغل الا للامة .. وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى ، فلا مندوحة عن القيام بواجباتى .

بقى أمر الفصل تحت التقديم الى مجلس النظار حتى وجدت وظيفة مستشار من الدرجة الثانية فى محكمة الاستئناف فعين فيها ، ولم يلبث فيهـا طويلا ، ثم عين سر تشريفـاتى لسـمو الخديو ، فوضع للتشريفات نظاما وقواعد . ثم رقى الى وظيفة رئيس الديوان الخديوى . وما لبث أن تغيرت ثقـة سـموه فيه من غير ذنب أتاه الا حب محافظته على مبادئه واخلاص النصح لسموه ، فقوبل على ذلك بالابعاد والاحالة الى المعاش .. ثم تفرغ لأعمال الجمعيـة الخيرية الاسلامية التى له من الفضل فى ايجادها وبقائها القسط الكبير .

أما مذهبه السياسى ، فكان رحمه الله يرى رأى حزب الأمة ، ويعمل لنشر مبدئه ، وهو الاعتدال والدأب على أن تنـال الأمـة الاعتراف بشخصيتها لتنال الاستقلال التام .

مصطفى كامل باشا

لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل ، فحياته معروفه مشهورة ·· ولكن أقول موجزا :

ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ووسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته ، فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى · فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير ، فانما تطرى الوطنية · واذا قلت الوطنية فان أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل ·· كأنما هو والوطنية شيء واحد ·· !

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم نعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه ··

كل هذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك ·· هو التضامن القومى ، والجامعة الوطنية ·

ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية ·· ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة الى اقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله ، وتخليدا لذكره ، واعترافا من

الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، وتجسد لهـذه الروح الطاهرة ٠

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات ، وفتحنا الاكتتاب على صفحات « الجريدة » وتكفلنا بالقيام بهذا العمل ، ولو أننا لم نكن من حزبه السياسى ، لأن مصطفى كان مصريا لجميع المصريين ٠

قاسم أمين بك

كان قاسم أمين من أصل كردى ، لأن جده أمير من أمـراء الأكراد ، أخذ ابنه رهينة فى الآستانة لخلاف كان بين الأكراد وبين الدولة العثمانية . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم أمين بك والد قاسم بك ، فجىء به الى مصر فى زمن اسماعيل باشا ، ودخـل فى الجيش المصرى ، حتى رقى الى رتبة أميرالاى ، وتزوج بكريمة المرحوم أحمد بك خطاب فكان أكبر أولاده قاسم .

ربى قاسم بك التربية المعتادة لأمثاله فى مدارس الحكومة . وكان ممتازا دائما بحده ذهنه وقوة ذكائه . فلما أتم دراسته بمصر أرسل فى بعثة الى فرنسا . فأتم دروس الحقوق ودخـل خـدمه الحكومة فى سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها غير عامين حتى عين مندوبا بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ثم نائب قاض ، فمستشار فى الاستئناف .

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسـم أمين ، يجـده تاريخيا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال . فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث .. ولكن على الرغم من ذلك . كانت نفسه بطبيعتها مستعدة لأن تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب .. فان قاسم قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الأشياء والناس » ٠

كان قاسم بك اجتماعيا لا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون أدمغتهم محافظ لآراء الغير ٠٠ فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير أن يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب من الرأى ٠ لا ٠٠ لم يكن كذلك أبدا ، بل كان مفكرا بالاصالة ، نقادا لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها الا اذ اعتقدها ، وصارت له بما قام فى نفسه من الأدلة اليقينية ٠

بحث قاسم أمين فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال ٠

وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة ، فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية ، وأطال فى ذلك التفكير ، وأخذ يجمع قوته وعدته ليفك هذا الانسان الضعيف من سلاسل الأسر التى قيدته بها العادة ، وليهدم هذا السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء روح السيدة المصرية عن أن ينتشر بين سمائها الصافية وأرضها المخصبة انتشارا يضىء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عناء الى ذروة المجد والاستقلال ٠

أجل ٠٠ ليفك أسر المرأة التى أوقعوها فيه باسم الدين ، وما هو من الدين فى شىء فالدين أسمى مما يظنون ، فكتب « تحرير

المرأة » ، ثم قفاه بكتاب « المرأة الجديدة » ٠٠ كتبهـا فهـد ركن سجنها ، وأضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها تحس أنها أم الرجل لها احترامه ، وأخته لها عطفـه وحنـانه ، وزوجته لها منه محبة لذاتها واعتباره لمركزها ٠٠ كما هدى الى ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٠

كتب فأجاد ، ولم يخشى منتقدا ولا لائما ، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من أفكاره ولا لفظ من ألفاظه ٠٠ ذلك لأنه يعتقد اعتقادا كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الانتقاد فى حب البلاد بألا يعبأ بالانتقاض الذى وجه لشخصه ، بل صيره متينا فى رأيه ومكينا فى اعتقاده مجاهرا به فى كل يوم حتى ساعة وفاته ٠

أخذ قاسم على عاتقه حمـل هذا العبء الثقيـل ٠٠ عبء السعى بالمرأة المصرية الى نظام العائلة ، وبنظام العائلة الى الرقى الاجتماعى المنشود ، وبهذا الأخير الى استقلال البلاد ٠٠

وقد كان يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال أولئك الأذكياء المجازفين الذين اذا ضم أحدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ، انحدر السيل يفيض فى القول صوابا أو خطأ من غير تدبر كأن معانيه وألفاظه لا قيمة لها فى نظره يجود بها اسرافا وتبذيرا ٠ فأما قاسم ، فان كل من عرفه أو سمعه يتكلم أول ما يخطر فى باله أنه لم ينطق الا عن روية وفكرة طويلة سابقة ٠٠ شـأن الرجـل المتحرج فى ذمته لا ينشر بين الناس الا ما قام له الدليل الواضح على صحته ٠

وان الذى يدرك معانى قاسم أمين ، أو أغراضه ، وتوجهه بكليته الى العلم والفكر ، ربما يظن أنه ككثير من العلماء والمفكرين فاتر الطبع ، ساكن الأعصاب ٠٠ كلا ، لم يكن كذلك ، بل كان ملتهبا

فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل أن بينه وبين الباقون بونا بعيدا فانهم اذا حضرتهم هذه الوطنية انفعلوا ، ولكنه اذا جاءته هو انفعل وانفجر انفعاله على قلمه ولسانه ٠

كتب « الدوق داركو » كتابا هجا فيه المصريين وأنحى على دينهم ، وسفه أحلامهم وقبح عاداتهم وأخلاقهم ، فانبرى له قاسم ، ووضع كتابا باللغة الفرنسية مكينا فى معناه ، ساحرا فى أسلوبه ، قويا فى تركيبه ٠٠ دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء منها ، وقارن بين حال المسلمة وحقوقها فى الاسلام وبين حال المرأة الأوربية المتمدينة ، فكان لهذا الكتاب صدى فى عالم الكتابه الأوربية ٠

وقابلت قاسم أمين بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل باشا فقال : « ما أنت وهذه الحركة القائمة ؟ » ٠ قلت : « على ما قد قرأت » ٠ قال : « انهم يقولون أنك بالغت فى وصف الروح الوطنية ، وأنك تعلق عليها آمالا ، وقد لا تكون صادقة » ٠ قلت : « والله ما اخترعت ، ولا بالغت فيما كتبت ، ولكنى رأيت رأى العين شعور التضامن يتجلى أمامى على رؤوس الناس فى الشوارع والطرقات ، فما فعلت شيئا أكثر من أنى أرسلت الألفاظ لتلبس هذا المعنى الطاهر وسطرتها على صفحات « الجريدة » ٠٠ وهل أنت تقول أنى بالغت مع القائلين ؟ »

فانبرى يقول : « انى أتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحال الشريفة ٠٠ ولو كنت أخفف عليك فى الحكم ، لقلت أنك فى نظرى أميل الى التقصير فى هذا الموضوع منك الى الغلو والاغراق ٠ ان هذا الشعور الوطنى الشريف ٠٠ هذا المولود الحديث الولادة الذى خرج من دم الأمة وأعصابها ٠ هذا هو الرجاء فى المستقبل ٠٠ هذا هو الذى يجب عليكم جميعا أن تباركوا عليه وتتعهدوه حتى يصير شابا ٠٠ هنالك تنالون الاستقلال » ٠

احمد عرابى باشا

فى سنة ١٩١١ توفى أحمد عرابى باشا قائد الثورة العرابية التى نشبت سنة ١٨٨٢ ، أيام كنت صبيا فى العاشرة من عمرى ٠ ولما كان غفر الله له من نوابغ المصريين وقد لعب دورا مهما فى تاريخ مصر ، أود أن أسجل رأيى فيه فى هذه المذكرات :

لقد كان مستقبل مصر طوع يدى هذا الرجل ٠٠ ان أصاب الفكرة ، وحزم الرأى ، وأتقن العمل ، جعله مستقبلا سعيدا ٠٠ وان عجل ولم يتدبر وانقاد لشهواته أو شهوات زملائه وقعت مصر فى التعاسة ٠٠ ومن نحس الطالع أن الذى جرى هو آخر الفرضين !

لعرابى حسنات قبل الثورة ٠٠ له حسنة رضيت عنها الأمة وفرحت بها ، رضيها الخديو توفيق باشا ، وسار عليها العمل ٠ تلك الحسنة الكبرى هى الدستور ٠٠ فالدستور المصرى من عمله ، ومن صنع يده ، ومن آثار جرأته ٠ طلبه عرابى ، لا بوصف أنه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الأمة ومشايخها ٠ فأما كون القوة العسكرية هى التى كانت الآلة لتنفيذ ارادة الأمة فى ميدان عابدين ، فذلك ان لم يكن مشروعا قانونا ، فانه مشروع بتقاليد الأمم ، لأنه هكذا جرى فى كثير من البلاد ٠٠ وكان القائد للحركة الدستورية فى كل بلد يحمل على الأكتاف ، ويهتف باسمه فى الشوارع والنوادى والمجالس ، فعرابى حقق آمال الأمة بالدستور ، ولم يرتكب فى ذلك جريمة ، ولم يسفك دما ، بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاما لابسا كسوة عسكرية ٠

لا يجوز لنا أن تغمط حق الرجل فى انالتنا الدستور ، بل يجب علينا ان نردد له ثناء آباتنا يوم صــدر قانون الانتحـاب ، وقانون مجلس النواب ٠٠ فان كانوا بعد ذلك لم يســتطيعوا حفظ مراكزهم ، أو اذا كانت انجلترا أغلقت المجلس ، وألغت قانونه يوم دخولها ، فذلك ليس من خطأ عرابى المباشر ٠ ومع ذلك اذا كان فى أخريات الأمر أو عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس ، وضغط عليه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور ٠

لعرابى سيئات بعد ذلك ، فيما يتعلق بخروجه على خديو هادىء من غير مصلحة عامة للأمة ، وفى عدم تقديره حاله امتــه من القوة والضعف تقديرا صحيحا ، وفى الجهل بالمقارنة بين قوته الحربية وقوة انجلترا ، وفى الانخداع ببعض المهيجين الانجــليز ، وبكلمات بعض نوابهم الأحرار ٠

عرابى له حسنة كبرى ، وسيئة كبرى ٠٠ حسنة عمدية ، ومعظم سيئته خطأ وجهل ٠٠ فاما الخيانة ، فذلك امر لا نعرفه فى زعمائنا المصريين المحسنين والمسيئين على السواء ٠ وكان من شأن هذه السيئة التى عوقب عليها ان تأكل الحسنة الأولى ، التى أسداها وهى الدستور ٠ فيصبح بعد ذلك على الأقل انسانا لا له ولا عليه كبقية خلق الله ٠ ولكن كان الأمر على غير ذلك ، فان الرجل عاش فى منفاه مذموما عند قومه ٠ فلما جاء من منفاه ، وهو شيخ أشيب ، لم يحترم له شىء من حسن نيته ، ولم يحفظ له شىء من تاريخه الطيب ، بل أتهم ضميره بالخيانة ولا يعلم الضمائر الا الله ٠

الرجل ما قابلته أبدا ولا جالسته مطلقا ، ولكنى أظن أن سوء مقابلته من أصحابه ومواطنيه غيرت قلبه ، وحطت من همته ، فأخذ

يدافع عن نفسه بعض الأحيان دفاعا أقل تناسبا مع اسمه وملكاته ، ولا ينطبق على قائد كبير مثله قابله الدهر باليد العسراء ، وجعل الفشل قيدا لجهاده فى خدمة بلامه ٠

لا أنكر أن عرابى أساء الى وطنه وأمتــه ، ولكن يجب أن أسارع بأنه أساء غير قاصد اساءته ٠٠ من حيث أراد أن يحسن ، وأضر من حيث أراد أن تنفع ، فله ثواب النية وعليــه مســئوليه النتيجة ٠

نعم عليه مسئولية النتيجة ٠٠ ولكن ما أظنه منفردا بهــا ، لأن الحكومة يجب أن تتحمل منها نصيبا أيضاً ، ومجلس النواب يجب أن يتحرل منها نصيبا ٠٠ كل على قدره ، بل أعيان البــلاد وتجارها عليهم أن يتحملوا من المسئولية شيئا ٠

يقولون أن عرابى أخافهم بحد السيف ، والواقع أننا ما سمعنا أن رجلا واحد قتله العرابيون ، لأنه تنبأ بسوء العاقبة ، وأنذر وحذر ، ووقف لهم فى طريق الثورة موقف الخصم الالد ٠٠ فعرابى لا يصح أن يكون وحده هو المسئول عن جميع الأعمال التى كونت الثورة ، وأدت الى هذه النتيجة السوداء ٠٠٠

الفصل الثامن

رحلتى الى أوربا
والى المدينة المنورة

★ فوائد السفر الى الخارج

★ ماكل باريس لهو

★ الانجليز فى بلادهم

★ ماذا رأيت فى مقام الرسول

فوائد السفر

فى السفر ما يملأ العقل راحة ، والنفس رضا ، ويفرج عن القلب هما · وما أكثر هموم المصرى · وكيف يرتاح ويسرى عنه الهم والنظام الاجتماعى مختل ، والأمة تشقى بأمراضها الثلاثة الفقر والجهل والمرض ، ومصر مازالت محتلة بالأجنبى ، والحكم غير مستقر ؟!

فى السفر ما ذكرت من الرضى ، ولكن فيه أيضا ما يميت القلب ، ويشغل الفهم اذا قارن المصرى بين ما كان يراه فى بلده من فشل الأمة فى حقها ، وبين ما يراه فى غير مصر من ديمقراطية صحيحة كاملة ، فيها الفرد يساوى الفرد حقيقة ، ولا فضل لأحد على أحد الا بمقدار نفعه لقومه · وليس لأحد من السلطة الا ما أرادت الأمة أن تعطيه لا هبة ولا مكافأة ، بل واجبا وفرضا يحاسب عليه حسابا عسيرا ·

في السفر ما رويت في الحالين ، وكذلك في الحياة ، لا شيء الا يدور النفع والضرر ، ولا حال بين النعيم والشقاء .

ليس على أن أدخل للقـــارىء من بـــاب الشعراء ، فأتكلف له وصف السماء وما تفعـــل الريح في وجه الماء . ولكن على أن أنقل له الوقائع في رحلتي الى باريس سنة ١٩٠٩ كما رأيتهـــا منذ نحو ثلاثة وخمسين عاما .

في البحر كمـــا في البر الناس ، لاينزلون عن شيء مـــن طبائعهم الأصلية ، ولا ماصار لهم بحكم العادة والتقاليد ، فاذا جاء الغروب نزلوا جميعا كل الى مخدعه ليمضي وقتـــا غير قليل في تنظيف وجهه وما علاه من غبار ، وفرق شعره ثم لبس السواد المعروف « بالاسموكن » للرجال ، وتلبس النساء خير مالديهن ، وخيره واسع الطوف . وليس هذا عندي بمنتقد في ذاته ، فما كانت النظافة اثما ، ولا التجميل عيبا ، ولكني أرى بوجه عام أن فكرة الزينة تأخذ من الناس مأخذها حتى لقد يفضلها المرء على راحته ، ويغلو في المحافظة عليها حتى أصبحت من حاجاته ، وما هي منها في شيء . ولكن الغلو في الزينة ، وارضاء شهوة التجمل بالعريض تجعل للانسان حاجيا ماليس بحاجي ، فتزيد في مقدار أسره ، وتقوى حلقات القيود والعـــادات التي يربط بها نفسه في هذه الحيـــاة .

حكم العـــادة

اختلف منا اثنان قال أحدهما : « ان العادة القوميـــة هي جزء مهم من مقومات الفرد من حيث كونه فردا في أمة معينـــة ، فالتنازل عن العـــادة هو تنازل عن احدى المقومات ، وليس من عادتنا أن نلبس ملابس خاصة للعشاء فما أنا بمغير ملابسي » .

قال الآخر : « أنا بين قوم نعيش فيهم الآن ، فمن الليـاقة أن نشاكلهم فيما يصنعون بما لا يذهب بالمروءة أو نحرمه العادات الشرقية · ولو أن لنا شركات ملاحة مصرية تنقل الناس من قارة الى قارة والتزمنا فيها عاداتنا لاتبعها الذين يركبون مراكبنا » ·

على ذلك كانت أغلبيتنا نحن المصريين تتراوح فى العمل بين هذا الرأى وهذا الرأى ، أعجبنى هذا التسامح من الفريقين الا أن المبادىء التى يطرقها لنا العلماء والكتاب كل يوم لتكون لنا أصلا للسلوك فى هذه الحياة ، قل أن تخلو من الخطأ ، بل من النادر جدا أن تخلو قاعدة عامة من الاستثناء والتخصيص · صدق الامام الشـافعى اذ يقول : « ما من عـالم الا وخصص · حتى هـذه القاعدة » !

وانى أسوق هذا الحديث لبيـان ما استطرد اليـه بحث المتناظرين من الأسف على فقدان ما كان لمصر من بحارة وبحـريه لو كانت دامت وتبعت الرقى الزمنى لولدت كفاءات بحرية تكون مصدرا لتأسيس شركات الملاحة والنقل ·

وصلنا الى « مرسـيليا » ، فاذا هى هادئة على ما فيها من الاعتصاب الذى يدعو الى الأسف لما يسببه من الخسائر ، ولكنه من جهة يدعو الاعجاب بقوة التضامن بين عمال البحر ، وتضافرهم على الوصول الى حقهم مهما مسهم من جراء الاعتصاب من الفقـر والعذاب ·

وبعد ذلك وصلنا الى مدينة « ليون » مهد الجد والعمل ، وموطن الحرير وكثير من صـنوف المصنوعات الفرنسـية · وأهم ما لفت نظرى فى هذه المدينة هذه المرة ملاحظة بسيطة جدا أجعلها أساسا للمقابلة بين ما تعمل حكومة الأمة ، وما تعمـل حكومة الفرد :

هذه المدينة العظيمة تتخللها جنات كثيرة فى معظم ميادينها ·· بعضها صغير ·· وان كان وارف الظل ، نافعـا جدا ليكون ملعبا للأطفال آخر النهار ـ وبعضها كبير جدا «كالروضة الكبرى»· دخلت فى كثير من هذه الرياض الجميلة التى يظهر من تخطيطهـا وتقسيمها أنه ينفق لحفظها مبالغ طائلة ، فما رأيت على أبوابهـا بوابا يعترضنى ، فيطالبنى بدفع رسم كما كان يقف بواب الأزبكية يطالب الصغير والكبير والغنى والفقير بدفع رسـم معلوم !· ان حكومتنا غنية عن جمع رسم ضئيل ·· مثل هذا الرسم لا ينفعها ، ولكنه يضر الفقراء ، وهم الأغلبيـة العظمى من الشعب ، الذين يحتاجون الى التمتع بالحدائق التى أنشئت من أموال الشعب ·

ماكل باريس لهو

وصلت الى باريس · وفى هذه المدينة كثير من الأشياء غير أسباب اللهو ، ودواعى الطرب ، وميادين اللعب ·· ولكن بعض كتاب الشرق قد اعتادوا أن يصفوا ما ظهر لأعينهم لأول وهلة فى شوارع الزينة دون ما بطن فى جوف المصانع الكبيرة والصغيرة من المخترعات ، وما امتلأت به معاهد العلم من التقريرات والبحوث فى العلوم والفنون · فما كل باريس لهو ، ولا عيب عليها فيما به يرمونها · ولكن العيب على من يكتفى من النظر الى الأشـــياء بلمحة ، وفى الحكم عليها بمسحة من الظاهر ·

كذلك كان يصنع بعض كتابنا ، وكذلك كان يطبق أغلب كتاب الغرب علينا الحكم بالظواهر وقد يكون ذلك بغلو وببعد عن حدود المعقول ، ويقرب سياحاتهم من قصص ألف ليـلة وليـلة : يتفق لأحدهم أن يرى جمـــاعة يصلون على النبى ، فينقل عن مصر أن معبودها « محمد بن عبد الله » !

لا يظننى القارىء أننى قد وقعت من المبالغة فيما أحذر منه ، ولكن بين يدى كتاب من صديق فرنسى جاء فيه أنه قابل انكليزيا على ظهر الباخرة انتقل بهما الحديث من موضوع الى موضوع حتى وصل العرب · قال الانكليزى وأكد تأكيد ذى الرابطة بين قومه وبين العرب : « ان العرب يعبدون الشمس !! » ·

واستدل على ذلك بأنهم يصلون لهـــا عند الشروق وعند الغروب ·· !

وزارتني في باريس سيدة تشتغل بتحضير محـاضرة عن وصف مصر ، ومن جملة ما أشكل عليها من المسـائل الاجتماعية بل المسائل المتعلقة بتحديد مركز مصر السياسى ، هو : كيف أن النساء المصريات محجوبات عن الرجال غير المحارم ، ومع ذلك فانهن غير محجوبات عن الخدم والاتباع الذين هم بالضرورة أجانب عنهن؟ واستنتجت فكرتها هذه من كونها رأت فى أبواب البيوت المصرية وأفنيتها رجالا يروحون ويغـدون • ولما لم تكن تدخـل الى باطن البيوت لتعرف أن هناك « حرملكا » خدمه نساء ، و « سلاملكا » خدمه رجال فقد حكمت حكمها على الظاهر •

أنظر كيف كان يجنى الظاهر على أمانة النقل وعلى الناس فى الحكم •• لا أنكر أن السائح من مشارق الأرض أو مغاربهـا اذا سألته عن قصده وكان من أهل اللهو أجابك انه يقصد باريس• ولكنى لا أنكر أيضا أن السائح يأتى من اليابان والصين وغيرهما ليتتلمذ على أساتذة باريس ، ويعرف منهم أسرار الحكمة وقواعد الحق والواجب وسبيل الاقتصاد •

أجل ان باريس تؤخذ عنها مودة الأزياء ، ولكنها تؤخذ عنها أيضا أسعار البورصة فى جميع أنحاء العالم • واذا كانت الأولمب ، والمولان روج وما بينهما من محلات اللهو ، فانها مدينة السوربون والكليات ، ومدينة التجارة والصناعات •

ولئن اشتهرت بجمال النساء وتبرجهن ، فقد اشتهرت أيضا بكاتباتها الفضليات • ولا يغرنك خفـة روح الباريسى وميله الى النكات والمزاح فان فى نفسـه ذكاء يتأجج لتحصـيل العـلم والنبوغ فيه •

ولا يدلك على ذلك أكثر من أن باريس تملك شهرتها هذه

من مئات من السنين ، فلم يتقلص مجدها ، ولم تسبقها غيرها من المدائن الى صفتها الجامعة بين دواعى الجد ودواعى الهزل ٠

وقد زرت باريس فى سنة ١٨٩٦ و ٩٧ و ١٩٠٦ وفى غير هذه المرات ٠٠ ويهمنى أن أشير هنا أننى كنت فى أول مرة زرت فيها هذه المدينة أختلط بطلبتنا المصريين وأناقشهم وأتحرى معلوماتهم وأتسمع على حالة أخلاقهم وسلوكهم الشخصى من مخالطيهم ٠ وأشهد أنى وجدتهم هذه المرة أكثر اقبالا على العلم وأشد اقتناعا بالمسئولية التى يحملونها أمام ضمائرهم وأهليهم وامتهم ٠

آنست منهم أنهم يعلمون جيدا أنهم ما جاءوا باريس الا لينقلوا العلم الى القاهرة ، وما تغربوا عن أوطانهم الا ليشرفوها ويجعلوها قوية محترمة ٠ لمحت فى وجوههم آمالا كبارا من حيث نشر العلم فى مصر وزرع المبادىء العالية فى بقاعها الخصبة ٠ وأقل همومهم فيما يحاولون المسألة السياسية ٠ لذلك عجبت من مقدار جهل حكامنا فى ذلك الزمان بسير هؤلاء الطلبة الراشدين ، وكيف كانوا يظنون أن طلب العلم بباريس بركان الهياج والقلاقل ، وما هو الا خير ونور وسلام ٠

الانجليز فى بلادهم

سافرت الى لندرة وأنا لا أعرف من الانجليزية ما يكفى لاستبقاء أبسط الأحاديث موضوعا ، ولكنى مع ذلك كنت معتمدا على أن اللغة الفرنسية معروفة هناك فى كثير من الطبقات خصوصا طبقة الكتاب والطبقة التى لا غنى للسائح عن محادثتها ، فان أمثالهم فى الفنادق الكبرى يتكلمون لغتين أو ثلاثا احداها الفرنسية . وكان يذهب عنى الحيرة بعد ذلك أن لى فى لندرة وغيرها من المدن الانجليزية أصدقاء من المصريين .

فلما كنا فى كاليه الميناء الفرنسية انقلبت الحال فجأة حتى أن الحمالين الفرنسيين أخذوا يخاطبوننا باللغة الانجليزية ، وكانت الفرنسية قد غسلت من الوجود على شاطىء المانش ، فشق ذلك على رجل فرنسى كان معى فى العربة . وقد قال للحمال الذى بادرنا بالانجليزية : « نحن نعرف من الفرنسية ما يكفينا للحديث عند الضرورة » . قالها ساخرا معنفا هذا الحمال الذى يعدل عن لغته لغير ضرورة ، فانقلب الحمال بفضل هذه الجملة فرنسيا يفهمنا ونفهمه .

وقد ذكرنى ذلك ببعض المصريين الذين يتكلمون الفرنسية أو الانجليزية بينهم فى بلادهم وما هم بذلك بمحتقرى لغتهم ، ولكنهم يتراطنون باللغة الأجنبية حتى يظنهم سامعهم أنهم قليلو الاعتداد بلغتهم وقوميتهم .

أنانية الانجليز

فرغنا من الحمال بهذه الملاحظة ، ودخلنا السفينة التى تجوز بنا المانش الى دوفر ٠٠ فأذكر أننى رأيت فى الركب رجلا هنديا يجتنب الناس ، ويقترب منى ٠ وكان كلانا يشعر بجاذبيــة نحو الآخر ٠ ولم يكن فى المركب من اللون الأسمر سوانا ٠٠ وكفى بالتقارب فى اللون ، وبالشرقية جامعا بيننا نحن الاثنين ٠ وكانت حادثة الشاب الهندى « دنجرا » الذى قتل السير كورزون فى لندرة جديدة العهد وقتذاك ، فوقع فى نفسى أنى سأشارك جارى الهندى فى استقبال النظر الشزر من الانجليز الذين اشتهروا فى العالم بأنانيتهم حتى اضطر حكيمهم « هوبز » الى أن يقول ٠٠ ان أصل الخير والشر فى هذا العالم هو حب الذات ، وانه هو أساس علم الأخلاق عنده ٠ كما اشتهروا بالتضامن الشديد وحبهم لكبار رجالهم مثل سير كورزون القتيل ٠

عولت على الا أبعد عن جارى الهندى وقلت فى نفسى : « ان عادة المصرى أن يكون ضحية لغيره ٠ وما كانت بلادنا أيضــــا الا ضحية يضحى بها على مصالحة القوى » !٠٠ للانجليز مصلحة فى أقرب طريق الى الهند ، فماذا جنت مصر حتى تكون هى الضحية لتلك المصلحة ، فقد قال أحد ساستهم يوم فتح قناة السويس : « الآن لزم احتلال مصر »

وقد كان ٠٠ وعلى هذا القيــاس كان أمــر بلادنــا الجميلة الخصبة فى التاريخ القديم ٠٠ لما ذكرت ذلك ذكرت أنى من قوم هم ضحايا الكرم والصبر ٠ توقعت أن يضايقنى الانجليز بصفتى هنــديا مع صــاحبى الهندى ٠ ولكن لم يكن مما توقعت شىء ، فلم أر أحدا بأن عليه أثر لما قد ظننت من تأففهم لرؤية الهندى ،

فأكبرت أخلاقهم · غير أنى لما خرجت بعـد ذلك الى البر · وكان يوم المرافعة فى قضية الهندى صرت أسمع نقلا عن المجالس صحه ما كنت أظن ·· فان الهنود كانوا مضايقين من البوليس السرى ، وان كثيرا من الانجليز كانوا يكررون ما قاله بعض كبرائهـم ان طرائق التربية الغربية ـ تربية الحرية والعلم ـ مفسدة للشرقيين ، وانه لابد لصلاحهم (يعنون بالصلاح ·· رضاهم عن حكم الغربى فيهم وتسلطه على بلادهم) تركهم على ما هم عليه ، فان ذلك خير طريق لسعادتهم أو (دوام استعمار الأوربيين لبلادهم) ·· !!

أمة صنعت مجدها

وجست خلال انجلترا · وكان أطول ما قطعت مسافة من لندرة الى ليفربول · يمر القطار فيها بقرى ومدائن لا يدل منظرها على حب الشذوذ ، ولا على الابتكار الذى أخـذ من فكرة الأوربيين مأخذا عظيما حتى صار مقياسا لشخصية الفرد وعلامة على النبوغ ، فان الكاتب الذى لا يولد لغته أسلوبا جديدا لا يعد كاتبا · وكذلك الشاعر الذى لا يأخذ خياله من الطبيعة أفكارا حديثة ومقاصـد أبكارا لا يعد شـاعرا عاديا · كذلك لا يلفت النظـر الى الشىء الا غرابته وجدته ، ولكن على الرغم من ذلك رأيت المدن والقرى الانجليزية وقتئذ متشابهة جدا فى تخطيط الشـوارع وارتفـاع الأبنية وألوانها حتى كان يخيـل للرائى أنهـا بنيت على فكرة المحافظة ·· أو فى حكومة المحافظين على أن الفرد الانجليزى فى فكره وعمله مبتكر طبعا أو كما يسميه أوربيو القارة « أوريجينال » ·

مر بنا القطار بغير المدائن ·· مر بحقول جميلة فسيحة قليلة الغلة معظمها كلأ ترعاه الأنعام ، والقليل مزروع حنطة ، والأقل منه مزروع خضرا وفواكه · فخطر فى نفسى لمشـهد هذه الأرض القليلة الغلة كيف أن الانجليز بهذه الأرض أغنياء ؟ ·

خطر لى هذا الخاطر السريع غير الناضج لأنى فلاح من قوم كل ثروتهم مما تنبت الأرض ، ولم البث أن لحظت موارد الثروة الانجليزية الطائلة من الصناعة التى كنا نحن المصريين نحتقرها بعض الشىء ، والتجارة التى كنا نأباها بعض الشىء ـ بسمت لهذا الخاطر ، وذكرت ذلك المثرى المصرى الذى كان لا يجلس اليـه أحد الا سأله : كم فدانا يملك ؟ • أو كم فدانا من القطن يزرع هـذا العـام ؟ • وأمثـال ذلك مما يشت عن فكرته فى أن قيمة الرجل فى ثروته ، وأن كل الثروة هو ما يملك من الأرض وما يزرع فيها من القطن ، فلقد كان مثلى مثل ذلك المثرى المصرى ، وذهلت عن حقيقة اجتماعية من أكبر الحقائق وهى :

ان غنى الأمة وسعادتها ليسا فى خصب أرضها ولا فى صفاء جوها ، واعتدال منطقتها ، وليس بضخامة مدائنها ، بل بمقدار عدد المهذبين من أبنائها ، فهم الذين يبنون مجدها ، وهم الذين يخلقون غناها •• نعم اذا أعوزتها خصوبة الأرض خلقوا لأمتهـم بعقولهم وعلمهم من الصناعة والتجارة والاعتماد على الذات والمخاطرة فى سبيل المنفعة ثروة تفوق الثروة الزراعية أضعافا ومجدا طارفا لا يطاوله المجد التليد •

تمثال نلسون

دخلت لندرة ، وأول ما يلفت النظر فيهمـا تمثال نلسون ، تمثال أقيم على قاعدة عالية جدا على غير المألوف بحيث لا يطاوله فى مكانه الرفيع تمثال أمير من الأمراء أو ملك من الملوك ، فان رءوس أولئك مهما علت لا تطول ربع القاعدة التى يقف عليها نلســون بقدميه • أجل انه كان فى الحياة رجلا عاليا ، فأعلى قومه مكانته فى الممات على كل من عداه •

كذلك يجل الانجليز رجالهم مادامت أعمالهم تشرفهم وترفع أقدارهم على أقدار الذين نالوا الشرف بمجرد الميلاد ·

لا يغشى السائح مجلسا من مجالس السمر فى الأدب الا ترى الانجليز يتحدثون عن شاعرهم شكسبير بلسان الفخر ، والاجلال والاحترام · ترى تمثاله فى المتاحف وتسمع ذكره فى الأندية ، وتشهد رواياته على المسارح ، ولم يمنعه أنه كان ممثلا من أن يكون فى قلوب الانجليز أعلى مكانة من ملوكهم الأولين ·

هيدبارك والأزبكية

فى أبناء الانجليز عادات تأصلت فى نفوسهم ، وصارت لهم أخلاقا ، أزعم أنها هى وحدها السبب فى قوتهم ـ تلك القوة المستفادة من جدهم فى العمل وتقديسهم لمعنى الواجب · ومن أخص ما لاحظت من تلك الصفات حرية القول والاستماع لكل قائل من غير أن يصادر أحد حريته · من ذلك أنى رأيت خطباء كثيرين يخطبون فى حديقة « هايدبارك » بعضهم واقف على الأرض ، وبعضهم يعلو منبرا متنقلا ·· منهم الشيخ ومنهم الشاب ، بعضهم على مقربة من بعض حتى نقدت عليهم سوء اختيارهم لهذه المزاحمة المادية للمكان ، والمسرح فسيح الأرجاء لا يضيق بآلاف الخطباء · وتمر جماهير الناس بهؤلاء الخطباء ، ويقف كل واحد منهم على الخطيب الذى يعجبه ، فيصفق له مع المصفقين ·

ليس الهايدبارك هذا منبرا خاصا بأولئك الخطباء العاديين الذين قد يبدأ الواحد منهم خطابته على فرد أو فردين أو ثلاثة ، بل هو أيضا منبر عام لكبار الساسة والخطباء المفوهين ، فقد كان غلادستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالى وأغراضه الكبيرة عمد الى هذه الروضة العامة يخطب فيها الألوف من الناس ساعات

متوالية فيحول الأمة من فكرة الى فكرة ٠٠ ويخرجها من مقصد الى مقصد ٠ وكذلك كان « كرهاردى » ونحوه من خطباء الانجليز الى اليوم يخطبون فى الناس من غير ملاحظة رسوم أو نظام أو اشتراط دعوة حتى تكون الأمة واقفة بواسطة هذه الألسن الرسمية على أحوال الحكومة ، فلا يفوت فردا من الأفراد أى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم ، أو تقريب بين أمتهم وأمة أخرى أو ضرب ضريبة عامة ، أو اعطاء النســاء حق الانتخاب بحيث أن العامل البسيط فى لندن يعرف من خطب الوزراء والنــواب فى « الهايدبارك » طرفا أو نتفا من قواعد مصالح الأمة التى مصلحته الشخصية بعض منها ، ولكن كان وزراؤنا ونوابنا ـ سامحهم الله ـ يجتنبون الكلام حتى فى سياستنا الداخلية الا ما يكون من التهامس فى الآذان فى الخلوات والنوادى بينهم وبين أخصائهم الأقربين ٠

هذا كله اذا عرفوا جليا مقصد الانجليز أو مقصد السراى فى مشروع من المشروعات ٠ فهل منهم من يقف يوم الجمعة فى حديقة الأزبكية فيبين للناس مقاصـــد الحـكومة فى أى أمر من الأمــور العامة ؟

كلا ان رجال حكومتنا لم يكن يهمهم ايقاف الأمة على مشروع أو اقناعها برأى أو فكرة ولكن الذى كان يهمهم أن يكسبوا من مجلس الشورى كل مشروع يريدونه بأية طريق ٠

اذا كانت أمتنا ليست كأمة الانجليز ، فان من وزرائنــا من تعلموا مع وزراء الانجليز فى مدرسة واحدة ، فهل من رأيهم أيضا أن « الشرق شرق والغرب غرب » ؟ ٠٠ أم هم فى القربى من الأمة لوزراء الانجليز ٠٠ زملائهم فى المدنية الحديثة ٠٠ مقلدون ؟

الى المدينة المنورة

فى سنة ١٩١١ وقبيل الحرب التركية الايطالية بليبيا سافرت مع أبى الى المدينة المنورة • وان أنس لا أنس وقفتى فى مكتبى لوداع ولدى •• اذ وقف كلاهما على كرسى ليستطيع عناقى من غير كلفة على هواه • ولئن أنكر على الرجل أن يصف المشاهد التافهة العادية التى تقع لجميع الناس ، فاى من الذين يعطون المقام الأول لمشاعر الحنان بين الآباء والأبناء • وآلام الفراق والشوق الى التلاقى وحب الأوطان ، والميل الى مسامرة الأشباه ومودة الأقرباء والأصدقاء ، ورحمة الفقراء ، ومواساة الضعفاء ، ومداراة السفهاء ، واحترام الكبراء •• تعجبنى روايات هذه المشاعر • ولا أجد حقا للذين يحتقرونها بجانب مشاعر البسالة ووصف آثار القدرة والشجاعة ، ومآزق الخوف والفزع والصفات الاستثنائية التى لا تتفق الا لعدد محدود جدا من بنى آدم لا يخطئهم العد • وأن الناس لمعذورون فى الولع بقصص مشاعر البسالة لأنها غير عادية • وقليل أن يجد المرء فى العادة لذة • ولكن تلك المشاعر العامية المتواضعة لا ذنب لها الا أنها عادية ، وان كانت فى الحقيقة هى المؤلفة لحياتنا اليومية ، وهى التى بها ، ولها نحيا ونحب الحياة •

فما أنس لا أنس وقفة وداع ابنى ، اذ ينظر أكبرهما الى بملء عينيه مفتوحتين جامدتين ، يسألنى كم يوما أغيب فى هذه السياحة ، فأجبته ثلاثين ، فاذا أنا بابنتى الصغرى وهى لا تجهل عد الأيام تجول فى عينيها قطرات الدمع ، فقلت لا بل شهرا واحدا • ولولا أنى كنت عزمت نهائياً على السفر وارتبطت به لأرجأته الى أن

يعتـــاد ولداى على خبره فيخف عليهما أمره ، لأنه كان فجائيـــا لا يعلمانه الا يوم سفرى ٠٠ تركتهما ولا شغل لى فى الســـاعات التالية الا تدبر هذا الشعور واستقصـــاء أصله فى نفس الحى ، ومقدار فائدة الطبيعة من ايجاده فى قلوبنا الضعيفة ٠

جعلت أتساءل : كيف يغفــل والد عن ولده المحبــوب بهذا المقدار ، فيتركه فى معترك الحياة البشرية أعزل لا ســـلاح له من العلم والتربية ؟ عجبت لرجل يحب ولده حبا جما ، فيجعل حبـــه وقفا على ما يضره دون ما ينفعه ٠ يأمره بالكذب لتحصيل خير مزعوم أو دفع شر موهوم ، والكذب مهلكة ، يطبعه على الملق والرياء والنفاق، وكلها مهالك ٠ يضرب له بفعله شر الأمثال من الاستهانة بالكرامة وحب البقاء الى حد الجبن ، والتبرم بالعهود الى حد اللؤم ٠ فاخلق بهذا الحب الأبوى أن يسمى « الكره الأبوى » ٠

أبناؤنا أجزاؤنا وصنع أيدينـــا ٠ هم بررة اذا أردنا ، وهم على ما عودناهم ٠ والمرء أسير عاداته ٠ انهم ان قست قلوبهـــم ، وفسدت طباعهم وكسدت عقولهـــم ، فالمسئوليـــة فى ذلك على ما أورثناهم اياه فى دمائهم وأمزجتهم ، وما دعوناهم اياه بعد ذلك من انتهاك حرمات الفضيلة ، وما قصرنا عنـه من تصحيح عقولهم بتعليم العـــلم ٠ واذا نحن تدبرنا وتحرينا الأصـــلح لمستقبلهم ، فربيناهم على الفضيلة ، وصححنا بالعلم أحكامهم على الأشـــياء ، وهذبنا أذواقهم ، وقوينا فى نفوسهم ملكة الأخذ عن الغير وملكة الفهم وملكة الانتاج ، أخرجناهم الى الحياة العملية مسلحين يغلبون ولا يغلبون ٠

ما أنس لا أنس تلك الوقفـــة وذكراها يثيرها فى نفسى نداء الصغار « يا بابا » و « يا أبى » و « يا أباه » تبعا للهجات البلاد ، فأشعر بفيض من الحنان لا يدع لغيره من المشاعر محلا من قلبى الى

أن أرجع النظر في هذه الحقيقة المعنوية الحسية معا ، فلا أفهم معنى ولا أرى وجها لأولئك الذين يدعون الله لأنفسهم أو عليها بالعقم أو بقلة الولد لأنهم يخافون الاملاق ، وما يتمنونه أقبح من الاملاق ٠ وما حر أحدهم أن يبقى فقيرا بماله غنيا بولده ٠ فيا طالما كان الولد قرة العين ومدفع الفقر ومناط الراحة والهناء ، أو ليس من الحمق أن يخشى الفقير كثرة الولد ليخسر زينة الحياة الدنيا بطرفيها : المال والبنين ؟! ذلك هو الخسران المبين ٠

من هؤلاء أيضا المتفلسفة المتطيرون الذين يأخذون على ظاهرة قول ملك المفكرين أبي العلاء المعرى ٠ يجأرون بالشكوى من سوء العيش ، يغلون في تقدير متاعب الزواج ، ويجبنون على احتمال العناية بالأولاد ، ويفضلون الرهبنة والعقم لا خوفا من الفقر ، ولا فرارا من الذل ، بل حرصا على راحتهم وارضاء لأنانيتهم ٠ يأخذون من الوجود ولا يعطون ، يستدينون ولا يؤدون ٠ كأنى بأولئك لا يرون الولد الا ثمرة لذة طائفة ، ولا يشعرون بمكانة الأبوة وطهارتها ولذتها التى لا تعدلها لذة عند الذين أوتوا قلوبا تعرف أن تحب ، وصدروا رحبة تسع اللذائذ والآلام على السواء ، ونفوسا كبيرة تستحى أن تكون مدينة للوجود لا دائنة ، مستهلكة غير منتجة ٠ أولئك هم الآباء الاكفاء لشرف الأبوة ، وأولئك هم أسعد الانسانية الأكرمون ٠

في مقام الرسول (ص)

ولا أريد في الحديث عن زيارتي للمدينة المنورة أن أتصدى لوصف معاهدها قديمها وحديثها ولا أخوض في وصف الحرم المدني والحجرة الشريفة ، ولا أنقل طرفا من العادات ، لأني اذا فعلت لا أكون الا مكررا لما ذكره الأستاذ الفاضل لبيب البتانوني في رحلته المعروفة .. غير أني أنقل هنا بعض ما شعرت به نفسي في مقام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فأقول :

متى خرج المسافر من « تبوك » مستقبلا الحجاز ، موجها وجهه نحو المدينة موطن الهجرة ، ومهبط الوحي ، ومقام الرسول (ص) ، تنفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها الى طبيعة الأرض التي يمر فيها من « تبوك » الى مدائن صالح الى المدينة المنورة . سهول قليلة مجدبة ، وجبال كثيرة جرد مختلف ألوانها ، لاترى عليها شجرا قائما ، ولا نابتا ، ولا طائرا ، ولا شيء الا الفضاء والسكون . منها جبال حمر وسود وزرق ضاربة الى الخضرة كلها موحشة لا يأنسها الا محطة السكة الحديد المسافة بعد المسافة . ان تجردت عن جمال الطبيعة المعروف لدينا ، والمصطلح عليه بيننا ، كجنات دمشق ، أو مزارع سهل البقاع ، أو مختلف مناظر لبنان ، فقد بقي لها من الطبيعة جلالها . ولاشك في أن الجلال قد يكون له في النفس ما يفضل أثر الجمال . تعطيك هذه الطبيعة الجرداء المهيبة اكبار الصعوبات التي لاقاها النبي العربي محمد بن عبد الله في سبيل القيام بتبليغ رسالته في هذه المناطق المترامية الأطراف العديمة الماء ، النادرة العشب ، الكثيرة الأوعار والأجبال . فاذا وصلت الى

مدخل المدينة تكتنفها الجبال ، ولحظت على الشمال دار عثمان بن عفان ، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة تحت جبل أحد ، على قرب من مصرعه ، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المضروبة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثار فى نفسك ثائر ذكرى ذلك المجد العربى القديم ، وأشرق على روحك نور تلك المبادىء الشريفة التى كان هذا الحرم مهدها ، ومصدر تشععها على أطراف العالم من أقصاه الى أقصاه · هنالك تعذر الذين يقولون : رأينا النــور من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء الى السماء · لم نر ذلك النور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نورا لايحتــاج فى انبعاثه الى هواء يحرك ذراته وينقلها ، ولا الى أجسام ينعكس عليها نور العلم والفضل ، نورى الهدى · انهم لايرون نورا حسيا كما يقال وكأنهم يرون نور الهدى يسعى بين أيديهم وبايمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا انك على كل شىء قدير ·

دخلنا الحرم المدنى لأول مرة من باب السلام فى زحام الزائرين مختلفى اللغات والألوان والأزياء والأجناس ، دخلنا ذلك الفنـــاء الرحب ، فناء الرجل العظيم ، والنبى الكريم ، والرسول الأمين ، فما هى الا نظرة الى مانحن فيه ، وتذكرة لما مضى من الأثر حتى يمتلىء القلب هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل الجبين عرقا من الوقوف أمام مقام من لايطاوله فى مجده مطــاول ، ولا يضارعه فى مقامه واحد من بنى حواء · فكلهم لديه ســـواء ، مغترف من بحر علمه ، ومستنير بهديه ، أو معتــرف له بسؤدده ورفعة مقامه · فالذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه ، يرونه بحــق سيد الخلق على الاطلاق ، والذين لم يؤمنوا ، لايجادلون فى أنه الرجل كل الرجل فضلا وكرما · والشارع الحكيم أحاط بالعظائم والدقائق من أحوال الناس ، والشجاع عديم المثال · هاجر الى المدينــة وهو لا يملك من الدنيا الا نفسه وصحبة صديقه وهو على هذه الحال ،

وفى تلك البلاد المجدبة وبين الاعراب لد الخصام • على هذه الحال قد أخاف الاكاسرة والجبابرة أصحاب الأموال والعروش والجنود أولى القوة بكل أسبابها ومظاهرها • ولم يكن له مما فى أيديهم شيء ، ولكن الله آتاه العلم والحكمة والنبوة والرسالة ، فكان له النصر ، وما النصر الا من عند الله •

فمن ذا الذى يعرف تقدير النسب بين الأشخاص والأشياء ، ثم يزرو قبر محمد ، ولا تخضع نفسه لهيبته ، أو لا يقصيه الأدب عن مس المقصورة أو اطالة المكث على مقربة منها ، الا على نحو ما يصنع فقيه المسلمين عبد الله ابن عمر ، اذ كان يعقل بعيره فى خارج الحرم، ثم يدخل فيقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبى • ثم يقفل راجعا من حيث أتى ••!• على انى مع ذلك أجد عذرا لهؤلاء العوام الذين يقتربون من الحجرة ، ويخرون على الأعتاب للأذقان سجدا • ثم يتمسحون بقوائمها ، ويدخلون شفاههم من الشباك يسرون كلاما طويلا أو قصيرا • فان المحبة قد تجب كل ما عداها من الملكات فى تلك العقول ، التى نمت فى أحضان القلوب لا فى أحضان العلوم فيذهلون عن تقدير النسب، ويجاوزون حدود اللياقة • ومع ذلك فان من الاعراب من لاحظت من هيئتهم الوقوف عند حدود التأدب ، سواء كان ذلك فى زيارة قبر الرسول ، أو فى زيارة الشهداء •

من ذلك أننا زرنا نحن وأصحابنا مقام سيدنا حمزة صبح يوم زيارته • فلما فرغنا من زيارتنا وقطعنا ميدانا فسيحا من الرمل ، حيث كانت عرباتنا تنتظرنا فى الجهة المقابلة ، اذا بنا نرى الاعراب زمرا راكبين جمالهم حاملين أسلحتهم ، كلهم يعلق فى كتفه بندقية ، ويشد في وسطه خراطيش رصاص وقد يكون الى جانبه غدارة أو خنجر ، وسيفه الى جانبه • مع ذلك كله وقفنا ننظر ماذا يفعلون،

فاذا هم يفدون من المدينة جماعة جماعة ، ينتظر بعضهم بعضا فى ذلك الميدان الفسيح تحت مسجد سيدى حمزة حتى كملوا أربعمائة هجان وقفوا وأمامهم علم أخضر يظل رجل منهم هو خليفة السنوسى فى مكة والحادى يحدو لهم شعرا بصوت جميـــل ، وهم يرددون عليه هذين البيتين :

سـيدى حمزة وياعم الرسول   قـد أتينــا فى حمـــاك
نرتجى منك الشفاعة والقبــول   لا تخيب مـــن أتـــاك

يردد هذا الجمع الكبير هذين البيتين فى آن واحد على نغمة ما أجملها ، فما علمت غناء فى مثل هذا الظرف أشجى نغمة ولا آخذ بالقلب من هذا الغناء الذى سمعته · يفعلون ذلك على بعـــد مـــن المسجد تحية القدوم ، ثم يترجلون فيدخلون للزيارة · وســألت عنهم ·· فقيل لى أن الخليفة السنوسى حضر من مكة للزيارة فى هذا الموسم ، مولد سيدى حمزة ، وليلة المعراج ·· فلا يحل بأرض قبيلة من قبائل الطرق الا دعوه للاستراحة عندهم ، ثم يتبعه من مريديه جماعة ، فلا يصل المدينة الا وهو فى مثل هذا الجيش من العربان المسلحين من تلاميذ الطريقة السنوسية · بالله ، ما أفعل الاعتقاد فى القلوب ، وما أقرب البدوى من السير وراء اعتقاده ·

على هذا الحرم الشريف تخيم السكينـــة ، فتزيده هيبة على هيبته ، ووقارا على وقاره · ومع انه غاص دائما بالناس من مختلفى الأجناس ·· لاتسمع فيه صوتا فيما بين أوقات الصلاة الا تقريرات المدرسين فى زوايا الحرم ، وحفيف الحمائم تنتقل من الحصباء الى ذرى الحرم ، لايهولها كثرة الناس ، فهى فى غاية الانس ، لا تعرف كيف يهاج الطائر ، ولا تتصور الوقوع فى حبائل الصيادين ، نواعم لاتعرف بؤس العيش ، آمنة لا يأتيها فيما حرمه النبى خوف ، فانه حرم من دخله كان آمنا · فاذا جاء وقت الصـــلاة انقلب السكون

ضجة ، وهرع كل من في المدينة رجالا ونساء الى الحرم لشــــهود صلاة الجماعة ٠

وللنساء هناك مصلى خاص بهن لايتعدينه الا اذا كثــر عنــه عددهن ، وضاق عن احتوائهن كما كان ذلك وقت صلاة العصر التى بعدها ، احتفل فى صحن الحرم بقراءة قصة المعراج ٠ وقتئذ كان كثير من الناس فى المسجد الى جانب الرجال ٠٠ على كره من أغوات الحرم على ما نظن ، فانى رأيت بعضهم يحتفظ جدا بجعل النســاء لايتجاوزن حدود مصلاهن الا للزيارة ٠ ولما قرئت قصة المعراج قام بعض الأعراب الجالسين على الحصباء فى صحن المســـجد يحصب بعضهم بعضا وهو يقول (حجينا حجينا) كأنه يشهد الناس أيضا على زيارته للرسول فى هذا الموسم ٠

وللناس فى المدينة عناية بحضور الدروس ، فقد تجـــد فى الحلقة ، من غير الطلبة ، كثيرا من المستمعين ٠ أما نحن فقد كنـــا نغشى الوقت بعـــد الوقت درس الأســـتاذ الكبير لشيخ حمدان الونيسى مدرس الحديث والبيان بالحرم الشريف ٠ ولمناسبة ذكر المدرسين يمكننا أن نصرح بأنهم يدرسون هناك التماسا للبركة ، لايطلبون على عملهم جزاء ولا شكورا ٠

غير أن من ألزم الأشياء تشجيع العلم فى منبته ، أى فى الحرم المدنى ٠ وذلك قل أن يكون الا بمكافأة أولئك المدرسين ، لا ليزيد اجتهادهم فى تعليم الناس شريعة محمد حول مقامه الكريم ، ولكن لتستمر مجاورتهم ، لأن المدرس مهما كثر اجتهاده اذا ضـــاق به العيش فى المكان الذى يقطنه اضطر اضطرارا لهجرته ، وليس ذلك من مصلحة العلم ٠ حقيقة أنهم يؤتون بعض الرواتب سواء من الدولة أو من الوقف ، ولكنها رواتب زهيدة جدا لاتفى بشىء من حاجات المدرس المنقطع للتـــدريس ٠ بحثت فى ذلك فتلقفت أطرافـــا من

الروايات مرجعها جميعا الى أن المزورين المطوفين وهم الذين يتصدرون لتعليم الناس كيف يزورون ، وماذا يقولون وبماذا يدعون ، هؤلاء وهم من غير العلماء بالدين ولا بالتاريخ ، ولا بغيرهما ، يأخذون هذه الوظائف بالوراثة . ومما بلغنا من غير سند ، انه اذا جاء الحرم رزق يخصص للعلماء ، قال المطوفون أنهم هم العلمـــاء ، فاذا كان للأشراف قالوا انهم هم الأشراف .

مصر والحرب التركية الايطالية

وما كدنا نعود من المدينة المنورة ــ أبي وأنــا ــ حتى كانت الحرب التركية الايطالية قد نشبت في ليبيا ، وأغارت ايطاليا على طرابلس ، فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وقد أخذت أنبه ــ على استحياء ــ الى واجب مصر فى هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنهــا مضرة ، ولا تستطيع أن تنقذها من الاحتلال البريطانى الذى لا يمــكن الخلاص منــه الا بتضافرنا والاعتماد على أنفسنا .

وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكنى لم ألتفت الى غضبهم ، واتفق أن جاءنى كتاب من تاجر بدمياط لا أعرفه ، يقول فيه ان الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز في عرض البحر ، لأنها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر ، فذهبت الى حسين رشدى باشا وزير الخارجية وقتئذ وأطلعته على الخطاب ، وطلبت اليــه التوسط للافراج عن السفينة ، فخابر ممثل ايطاليا في مصر ، فافرج الطليان عنها ، وعادت السفينة الى صاحبها .

الفصل التاسع

مع سعد زغلول
والخديو عباس

- ★ العلم المصرى والاستقلال
- ★ تأليف أول وفد مصرى فى عهد الخديو عباس
- ★ الوطنية ضريبة لا منحة
- ★ سعد زغلول ممثل المتعلمين الأحرار
- ★ طلبوا وحدة مصر وسورية سنة ١٩١٢

العلم المصرى والاستقلال

فى سنة ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه عليها حسين رشدى باشا ، وتولى يوسف وهبه باشا وزارة الخارجية ، فذهبت الى رشدى باشا أطلب اليه أن نبدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط • وكأن وهبه باشا حاضرا الحديث ، فقال ان هذا العمل سابق لاوانه • ثم رجعت مرة أخرى الى رشدى باشا أطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأن تنصب الخديو ملكا عليها ، ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال ، ورجوته باسم حزب الأمة أن يعرض هذا على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر • وطلبت اليه الا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين • وبعد يومين استدعانى ، وأخبرنى أن الخديو مسرور جدا من هذه الفكرة • وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لأن انجلترا لاتريد مضايقة تركيا ، وقال لى انه أخبر بها

سعيد باشا ، فقال : « هذه هي الخيانة العظمى » .. فذهبت الى اللورد كتشنر وحادثته في الأمر ، فقال لى :

« لقد بسطنا يدنا لتركيا ، فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر ألمانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لنغير الموقف كثيرا .. ومع هذا فاني لا أجد الوقت مناسبا لقبول فكرتك » .

تأليف أول وفد مصرى

رجعت الى رشدى باشا بعد ذلك ، وكان قد قابل الخديو مرة ثانية ، فقال لى :

« ان الخديو يرى أن يؤلف وفد من عدلى باشا ، وسعد باشا ، وأنت للذهاب الى لوندره للسعى لتحقيق هذا الأمر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى . وعليه النفقات » ! ..

واجتمعنا في بيت سعد زغلول باشا نحن الثلاث لندبر الخطة ، وأخذت أنا أنشيء حملة في هذا المعنى تحت عنوان : « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » .

هذه الأحداث امتدت أسابيع ، في أثنائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والأعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا في هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ، ويشترون المؤن والأسلحة ويرسلونها للجيش التركى بطرابلس .

وكانت الصحف المصرية - عدا « الجريدة » - تشجع هذه الحركة ، وتنشر أخبارا عن هذه التبرعات تنبيء أن الأمة كلها مع تركيا ، فتداولنا نحن الثلاثة - سعد ، وعدلى ، وأنا - في هذا الموقف العسير ، لأن الأمة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لا يمكن أن تريد الانفصال عنها . ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط في الماء .

استقالة سعد زغلول من الوزارة

في ابريل سنة ١٩١٢ استقال سعد من وزارة العدل التى خلفه عليها رشدى باشا في وزارة محمد سعيد باشا • وقد وقفت الى جانبه فى هـذه الاستقالة التى تسببت عن حادث ـ لا داعى لذكره ـ يهم عابدين وقصر الدوبارة على السواء • وكان الطرفان متبرمين بسـعد لصراحته التى كان يبديهـا فى مجلس الوزراء ، وصلابته في الحق والعدل ، وحرصه على أداء واجبه ، وأنا من الذين ينتصرون لاسـتقالة الوزراء والموظفين اذا لم يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم ، لأنى أعتقد أن الوظيفة مهما يكن نوعها ضريبة على الموظف ، لا منحة له • فاذا عجز بأى سبب عن أن يؤدى الى أمته أكثر ما يستطيع أداءه من خدمة حقوقها وتحقيق المبادىء التى يعتقد صلاحهـا ، فالواجب عليه أن يستقيل ، وتكون استقالته مشرفة لشخصه ، مشرفة لقومه ، ودرسا نافعا للناس ، ومثلا صـالحا للصدق والاخلاص فى خدمة المجموع • وليست الوظيفة لمصـلحة الحاكم ، ولكنها لمصلحة المجموع • وان السلطة التى فى يد الموظف انما هى لمصلحة الأمة لا لمصلحة شخصه ، ولا يجوز أن يكون منها لمصلحة شخصه شىء الا شعور الرضى ـ ذلك الشعور الذى يحسه الرجل عندما يقوم بالواجب عليه لقومه • فمادمنا نصدر عن هذه القاعدة ، فلا عجب ان نصبنا أنفسنا أنصارا لفكرة استقالة الوزير أو الموظف كلما وضعت العراقيل أمام حريته فى العمل ، فأصبح يشعر بأنه لا يؤدى للأمة أكثر ما يستطيع أداءه من الخدمة ، بل قد تطرق الغلو الى اعتقادنا هذا ، فجعلنا لانكره استقالة الرجل العـامل ذى العقل الناضـج والارادة القوية من خـدمة الحـكومة ولو لسبب شخصى لا علاقة له بالعمل ولا بالحكومة ، لأننا فى بلادنا لم نكن قد وصلنـا بعد الى الموازنة بين الأمة والحـكومة في عدد الرجال الأكفاء المستعدين لأن يبنوا بأيديهم مجد أمتهم •

ليس هذا وحده ما فسر انتصارى لاستقالة سعد زغلول فى ذلك الحين ، بل أضيف اليه انه استقال وترك الوزارة بين الثناء والاعجاب ، وألقى درسا نافعا للحاكمين والمحكومين على السواء • فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الأمة بأسرها واستحسانها • ولا معنى لاجماع الطبقـــات على استحســـان دخـوله الوزارة بكل ما عهدنا لوزير غيره عند تعيينه الا ليكون ناصرا للأمة ، مدافعا عن الحق متشددا فيه •

ممثل المتعلمين الأحرار

كان « سعد » قد دخل الوزارة ليمثل فيهـا طبقـة المعلمين الأحرار الذين ليس على عقولهم ســلطان الا للحق ولا على قلوبهم الا حب الوطن ونفعه ، فحقق فى المعارف سلطة المصرى ، وملأ كرسى الوزير وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوى بين الموظفين الأجانب والوطنيين ، وحقق آمال الأمة فى أكثر ما طلبت ، فجعل التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم هى لغة الامتحان ، وأعاد عهد البعثات ، وجعل للنظامات المدرسية قوانين لابد من عرضها على مجلس شورى القوانين الى غير ذلك من المشروعات التى أعادت الى المعارف عهد وزيرها المرحوم على مبارك باشا •

وكان من أعمال سعد انشاء مدرسة المعلمين ، ومدرسة القضاء الشرعى التى وجد فى انشائها صعوبات جمة كانت محكا لشجاعته الأدبية ، وقدرته الوزارية ودهائه الســياسى ، فلمـا تولى وزارة الحقانية لم يفرط فى حقه بصفته وزيرا ، ولم يكن فيها بأقل غيرة على اقامة العدل منه فى نظارة المعارف على نشر التعليم حتى كان دفاعه عن اعتقاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخديو والانجليز به •

وقد اتهم سعد فى استقالته بأنه قد نقصــــه الدهاء اللازم للوزير لارضاء السلطة • وهى تهمة عجيبة • على أنه نجح كثيرا فى حمل السلطة على الرضى برأيه وتحقيق مشروعاته •

ومهما قيل فى ذلك الزمان من أن الوكالة البريطانية كانت تعاضــــده ، فمن المحقق أن الرجل كان فى كل أعماله لا يخالف اعتقاده ولم يداج فيهـــا ، بل كان يدافع عن رأيه أمام الســلطة الشرعية والسلطة الفعلية حتى انه لما اتفقا معا عليه لم يتحول عن موقفه ، وفضــــل الاستقالة المشرفة التى قال عنهـــا بعضـــهم ان استقالته تعتبر استقالة للوزارة •

وحدة مصر وسورية

فى نحو سنة ١٩١١ ظهرت لأول مرة بوادر ما يسمونه « البنارابيزم » أو الجامعة العربية ، وفى هذا الحين وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان ، هما السيد شكرى العسلى من دمشق ، والسيد ثابت من أعيان بيروت ، وكانا نائبين فى مجلس المبعوثان باستامبول . وكان الغرض الذى جاءا من أجله السعى لضم سورية الى مصر .. وقد لقيانى مرارا فيمن لقيا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأى . ولم أكن متفقا معهما فى هذا الرأى لا لتعذر هذا الطلب فحسب ، بل لأنى لم أره فى مصلحة مصر . وأذكر أن السيد شكرى العسلى كان متحمسا لفكرته الى حد أنه كان يدافع عنها بصراحة غلبته على كل اعتبار حتى قال لنا أنا وعبد العزيز فهمى باشا ومحمود بك أبو النصر فى مأدبة بمنزلى :

ـ مصر فيها مال وسورية فيها رجال ! ..

وذلك فى مقام التدليل على فائدة وحدة سورية ومصر . وقد انتهى الأمر بأنهما لم ينجحا فى هذا المسعى .

وكنت منذ زمن طويل أنادى بأن مصر للمصريين ، وأن المصرى هو الذى لا يعرف له وطنا آخر غير مصر . أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ، ويتخذ له وطنا آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة . وقد دعوت السوريين فى مصر الى أن يسجلوا أسماءهم فى المحافظة ليكونوا مصريين . وبعث الى شكور باشا مدير بلدية الاسكندرية ، وعبد الله صنفير باشا مدير المطبوعات بالداخلية يعززان هذا الرأى . ولم أقصد السوريين

فقط ، ولكنى كنت أريد أن يتحمل كل قاطن فى مصر من الواجبات ما يتحمله المصريون لتحقيق القومية المصرية · فقد كان من السلف من يقول بأن أرض الاسـلام وطن لكل المسلمين · وتلك قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد · تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويجب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة ليصل بذلك الى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع الى الاستقلال بسيادتها على نفسها · أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لنفوذ الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تنمحي جنسيتها ، ويفني وجودها ، فان أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال·

ولهذا أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها ، فلم يبق الا أن يحل محلهـا المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود ، وهو مذهب الوطنية ·

لا يفهم مما أقول أننى كنت أدعو الى التفريق بين العنـاصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين ، بل على ضد ذلك كنت أدعو للجامعة المصرية ·· دعوت الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب الى هذه الجنسية الشريفة · يقيمون بأجسـامهم فى مصر ، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالبا خارج حدودها الى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها ·

ان مصريتنا تقضى علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا وأن نكرم أنفسنا ونكرم وطننا فلا ننتسب الى وطن غيره ، ونخصه بخيرنا ، والانتساب الى مصر شرف عظيم ، فقد ولدت التمدن مرتين ، ولها من الثروة الطبيعية والتاريخية ما يكفل لها الرقى متى كرم أهلوها ، وعزت نفوسهم ، وكبرت أطماعهم ، فاستردوا شرفها وسموا بها الى مجد آبائهم الأولين ٠

أول نقابة للصحافة

فى نحو سنة ١٩١٢ دعونا الى تأليف نقابة للصحافة المصرية ٠ وقد استجاب الصحفيون على اختلاف ألوانهم الى هـــذه الدعوة ، واجتمعت الجمعية العمومية ٠ ثم انتخبت مسيو كانيفيه صـاحب جورنال « الريفورم » بالاسكندرية نقيبا ، وانتخبت الأستاذ فارس نمر وأياى وكيلين ٠ كما نتخبت كلا من جبرائيل تقلا صـاحب « الأهرام » ، ومسيو فيزييه صاحب جورنال « لوكير » سكرتيرا ٠ وأذكر أنى مثلت هذه النقابة أنا ومسيو فيزييه فى حفلة افتتاح مصرة كوم أمبو ٠ وقد خطب فى هذه الحفلة كل من يوسف قطاوى باشا ، وأحمد شفيق باشا ٠ ولم تعمر هذه النقابة طويلا لأن الحرب العالمية الأولى أتت عليها ، ولكنها كانت أول محاولة لنقابة الصحفيين فى مصر ٠

فى انتخابات الجمعية التشريعية

فى سنة ١٩١٣ ألغى مجلس شورى القوانين وحل محله نظام الجمعية التشريعية وكان لابد لى من الدخول فى عضويتهـا لأزيد صوتا على أصوات حزبنا فى الجمعية ، فدخلت فى انتخاباتها وكان صديقى فتحى باشا زغلول يعلم أن الانجليز أوعزوا باسقاطى أنا وسعد زغلول باشا فى هذه الانتخابات ، فأشار على بألا أتقدم اليها

حتى لا يذهب سعيى سدى ، فقابلت مستشـار الداخلية مستر جراهام وسألته عما بلغنى فى ذلك ، فأكد لى أن الانتخابات ستكون حرة وان الحكومة ستكون على الحياد • ولشد ما كان عجبى حين وجدت على باب مركز السنبلاوين عربة سعيد باشا ذو الفقار وزير المالية الجديد •• وعلمت وقتئذ أنه لما عين وزيرا بعد أن كان مديرا للدقهلية طلب اليهأن يدير هو الانتخابات دون المدير الجديد حافظ حسن باشا الذى كانت الحكومة تعلم أنه صديقى • وعلى هذا الوضع سقطت فى الانتخابات • ولكن سعد باشا زغلول نجح بالقاهرة فى دائرتين ، وأرسل الى تلغرافا يقول لى فيه :

« ولئن سقطت فى الانتخاب ، فلك عطف العقلاء » •

وقد أشيع ان الذى أسقطنى هو دعوتى الى الديمقراطية التى كانت تؤول تأويلات بين الناخبين فيها خروج على الدين الاسلامى ، ولكنى لا أعرف شيئا عن هذه الاشاعة التى قيل انها شاعت بين الناخبين ، كما لا أعرف سببا لسقوط فى الانتخابات الا تدخل الحكومة ، وعملها لاسقاطى •

الصلح مع الخديو

فى أوائل سنة ١٩١٤ طلب الى محمد سعيد باشـا مرة ، وسعد باشا مرة أخرى أن أطلب مقابلة الخديو عباس لأنه يرغب فى لقائى ، فكانت اجابتى دائما : « اذا كان الخديو يريد أن يتفضل بلقائى فليدعنى هو الى ذلك » •

وفى احدى التشريفات قال الخديو عباس لوالدى « أحب أن أراك ومعك لطفى بسراى القبة يوم السبت » •

فاستجاب أبى الى هذه الدعوة وسر بهـا ، وطلب منى أن

أصحبه الى سراى القبة ، فذهبت معه ، فأحسن الخديو استقبالنا ، وتكلمنا يومئذ فى بعض الشئون العامة . وقال لى :

« أنا مسرور لحضـــورك . والأستاذ جرين كلمنى عنك كثيرا .. » ، والأستاذ جرين هو المحامى الذى قدم مذكرة ضد الخاصة الخديوية فى قضية شركة الجريدة .

ثم تكلم الخديو عباس عن وزارة محمد سعيد باشا ، وكان برما بها ، ويريد تغييرها ، وسألنى عن رأيى فى الرجال الذين يصلحون لوزارة جديدة ، فذكرت له أسماء عدة منها سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعدلى ، وثروت .

ولما انفض المجلس خرج معنا ليودعنا ، وهو يقول لى : « قد عرفت الطريق ، فتعال عندى كل يوم سبت » .

فقلت لــه : « يا مولاى ما شـــأن الكاتب والاتصـــال بالسلطات ؟! .. » .

فقال : « اذن أنت لا تريد أن تأتى عندى ! » .

قلت : الواجب على يا مولاى أن أجىء كلما دعيت .. » .

فدعا الخديو حافظ بك عوض الذى كان يعمل وقتئذ سكرتيرا خاصا له وطلب منه أن يدعونى كل يوم جمعة ، لأحضر اليه يوم السبت . وكذلك كان .

وفى يوم من أيام السبت عرضت عليه أن نحمل حملة على الانجليز نطالبهم فيها أن يساعدونى على أن تكون جزيرة « طشيوز » باليونان تابعة لمصر كما كانت فى زمن اسماعيل ، فانه كان يرسل اليها دائما قاضيا مصريا وبوليسا مصريا لادارة الأمن . ثم تراخى الأمر بعد ذلك الى أن صارت تابعة لتركيا . ثم أصبحت لليونان .

فوافق الخديو على هذه الفكرة فطلبت اليـه الاذن بأن أطلع على الفرمانات الخاصة بها فى السراى ، فكلف شفيق باشا بأن يأمر بترجمة هذه الفرمانات الى اللغة العربية · فترجمت ، وبدأت فى « الجريدة » حملة على هـذا الوجه ، مؤداهـا أن الانجليز ادا لم يحمونا من اليونان ، فممن يحموننا ؟ وما كدت أسير فى هذه الحملة حتى قال لى فى يوم سبت آخر :

ـ يخشى أن تقع « سالونيـك » ومعهـا طشيوز » فى حوزة البلغار · وعلى ذلك يكون من الأصلـح أن نستبدل بها أطيانا فى الصلمان بالأناضول·

وكان غرضه من ذلك أن يوسع بهذه الأطيان تفتيشه فى تلك البلاد ، فقلت له :

ـ يا مولاى لست أدرى فى المسائل الاقتصادية شيئا يذكر ·· وطويت أوراقى وصرفت النظر عن « طشيوز » ·

بعد ذلك اعتزم الخديو عباس أن يسافر الى استامبول ، ورغب فى زيارة مديريات الوجه البحرى قبل السفر · مظاهرة كان يريد بها اقناع الانجليز بأن البلاد تحبه وتتعلق به ، فدعانى اليه عثمـان مرتضى باشـا رئيس الديوان الخديوى فى ذلك الحين ، وقال لى :

ـ ان سمو الخديو يحب فى سفرته هذه أن يزور والدك فى البلد ، فهل لكم بيت فى السنبلاوين ؟

قلت : « نعم » ، قال : « اذن تستقبلونه هناك » ·

فقلت : « وهو كذلك » ·

وشكرت للخديو هذا العطف ودعوت له بطول البقاء ·· ثم قام الخديو بزيارة الوجه البحرى ، واستقبلنـاه بالسنبلاوين فى حفل من العمد والأعيان · وسر أبى سرورا عظيما بهذه الزيارة ، وصحبناه الى الاسكندرية حتى ركب البحر ·

الفصل العاشر

عرفت تولستوى
وفتحى زغلول

*** تولستوى رجل الاشتراكية والسلام**

*** فتحى زغلول رجل الحرية والتطور**

ليو تولستوى

فى نوفمبر سـنة ١٩١٠ توفى رجل الانسـانية والسلام ليو تولستوى . وكنت وقتئذ فى قريتى ، فبعثت الى الجريدة برأى فى هذا الرجل العظيم بمناسبة وفاته فى ذلك الحين فقلت :

أحاول أن أكتب كلمة عن تولستوى حيث أنا الآن فى قريتى ، تحيط بى أشباه المناظر التى كان يحبها تولستوى يحبهم ويتفظر قلبه اشفاقا عليهم رحمة بهم ان يقتربوا من المدائن فتحرقهم نار الشهوات ، وتلعب بقلوبهم البريئة شياطين الأطماع الخسيسة ، فتغير مجرى فطرتهم الصالحة الى عادات البذخ والترف ، وتجرى ألسنتهم على الكذب وتسكن أمزجتهم الى رؤية الزور ، وسماع الهجر من القول والصبر على الباطل .

أكتب عن هذا الرجل الكبير ، حيث أنا فيما كان يحبه ، رحمه الله من السكينة ، لا أسمع الا خفيف الهواء ، وصهيل الخيل ، وصياح الدجاج ، ونعيق الغراب ، وصفير العصافير . فلا شك أنى فى أليق ظرف من الزمان والمكان ، أحاول الكتـابة عن تولستوى وان لم يكن تحت يدى ولا مؤلف واحد من مؤلفاته الكثيرة . وانى على ذلك لا أجدنى برثائه خليقا ، الا كما يرثى امرؤ هذه الأرض الواسعة قد خلت من أحد مصابيحها ذوات الضوء الساطع ، أو كما

يشفق أحد بنى آدم من فقد هاد من هداة الفضيلة ، وواعظ من أكبر الواعظين ·

أشعر بأن مصيبة العالم فى هذا الرجل ليست كالمصائب التى تفجع لها القلوب ، وتألم لها الأنفس بحزن حار ، يجرى الدموع ويسلم اللسان لهذيان من فرط الجزع ، لا أشهر بذلك ، بل أشعر بأن المصيبة بفقد هذا الحكيم مصيبة كبيرة ، واقعة فى النفوس وقعا فاترا ، لا تدمع عينا ولا تخفق قلبا ، ولا تحرك ألما من آلام الأحزان ، كأنما هى تقع على العقول لا على القلوب ·

فأولى بوفاة تولستوى أن تشبه بكسوف الشمس أو بخسوف القمر ، أو بأية ظاهرة من تلك الظواهر الطبيعية ، التى أكثر ما تهتم لها عقولنا لتدبرها ، وتعرف آثارها فى الوجود ··

لم يكن هذا الرجل روسيا فقط ، بل كان انسانا قبل كل شىء ، يحب أمته ويحب أعداء أمته ، يحب السلام على الدوام ، يحب أيام السلام وأيام الحرب على السواء · يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه ·

ولم يكن كذلك مسيحيا محدود المشاعر بحدود النصوص أو التقاليد ، بل كان مسيحيا لأحد لتسامحه ، يسع صدره الرحيب آراء موافقيه فى الدين ومخالفيه ، يرى فى الدين أنه طهر للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب ، ويرى فى العمل به السعادة فى هذه الدار الدنيا والآخرة ·

فاذا كان تولستوى رجل روسيا وحدها ، بل رجل العالم والسلام ، واذا كان تولستوى ليس مسيحيا محدودا بمذهب معين متعصبا له ، بل متسامحا يقبل دين الفضيلة حيثما وجد من غير تحرج بحدود مذهب غير مذهبه الواسع ، فأخلق بمصيبة تولستوى

ان تكون كما قدمنا خسارة عالمية ، لا خسارة روسية ، أو خسارة مسيحية ·

ان الله يبعث الجيل بعد الجيل على هـذه الكرة رجالا من الناس يؤتيهم طرفا من حكمته وقبسا من نور أسراره ينصرون الحق على الباطل ، ويشعرون بنور هديه فى الأزمة المظلمة والمكان القفر ، يتبعون سنن الأنبياء فى ارشاد الناس ، ويقفون نفوسهم وملكاتهم على بلوغ ما يريدون من خير للانسانية ، فاذا مات أحدهم كان موته خسارة تتأثر لهـا الحقائق العلمية ومكارم الأخلاق ، ولم يكن تولستوى الا أحد هؤلاء · فمن بعده للفقراء والمساكين يقف لهم فى وجه الظلم والبؤس والنفى والعقاب على غير جريرة · ومن للدين ينصره بشجاعة فائقـة لا تقف أمامهـا انتقادات المنتقدين ، ورمى الرامين له بالزندقة والخروج عن القصد ، بل من للمساواة والمعاملة بالعدل ينصرها من تعدى الطبقات القوية عليها فى كل مظاهرهـا السياسية والاجتماعية والاقتصـادية · بل من يهدى الرجال الى العمل الصالح ، وقد مات الرجل ·

اشتغل تولستوى بالفلسفة ، فلم ير رأى النظريين بجملته ، ولا رأى الماديين أو الوضعيين ، كان عقله الواسع يأبى ، دائما ، وفى كل شىء ، أن يتقيد بالقيود المذهبية التى يستحيل أن تخلو من التعسف ·

اشـتغل بالسياسية فكان يكره الاسـتبداد ، وينفر منه ، ويغلب ارادة الجماعة على ارادة الفرد ، يقول بسلطة الأمة ، ويعمل بنفسه وبأنصاره وتلاميذه (وهم أكثر من الكثير) على تحقيقها وقد تحققت فى بلاده أو كاد يتم تحققها بالفعل ·

اشتغل علما وعملا بالاقتصاد ، فكان مذهبه اجتماعيا قريبا جدا من الاشتراكية أو كان هى بعينها · وهو وان كان لم ينجح

فى تجربة ، الا أن ذلك ليدل كثيرا على عقله المرتب الذى ظهرت آثاره متجانسة فى جميع الفروع المختلفة التى اشتغل بها ٠

اشتغل بالدين ، فنفى منه كثيرا جدا من التقاليد الكنائسية المادية على الأخص ، واتخذ له انجيلا خاصا به اتبعه كثيرون فى تعاليمه ٠

وقد كان تولستوى على ذلك كله يجب أن يحسب فى كتاب الحقيقة (كتاب الواقع) لا كتاب الخيـال (الذين يكتبون عن الانسان باعتبار ما يجب أن يكون لا باعتبار ما هو فى الواقع) ٠ فانى أذكر أن قصته الموسومة (بالبعث) لم يكن فيها عن الشهوات الا حقائق عريانة ، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبل فى نفس بطل الرواية ، ثم أظهر فيها أغلاط العدل الانسانى على صورتهـا التى كانت قد فارقته مؤقتا عند استحكام الشهوة ٠ وذلك ما نجده عاما فى الانسان كل يوم ، ثم رجع الى تأثير الوسط ، وتغلب ميول النساء مما لا يشذ كثيرا عن الأمثلة اليومية التى يجدها مخالطهن ، ولو كان غير عمار ذى كناز الذى قال فيهن :

أراح الله عمـــــارا	من الدنيـــا ومن هن
قريبـــان بعيـــدان	فـلا كانا ولا كــــن
يمنين الأباطيـــــل	ويجحـــدن الذى قلـن

كذلك كان وصفه لحال الزوجية فى قصصــه « لاسـونانت كرتزر » غير ناب عن الواقع ، وأن وصفه فيه غير عام فى العائلات مع السرور ٠ ولقد سبب له هذا الكتاب امتعاض السيدات منه ، واتهامهن له فيما كتب ، وأرسلن له خطابات الانتقـاد والشتم ٠ وعندنا أنه فى هذا الكتاب لم يكن خياليا ، ولا كاتب واقع الا كما كان (اميل زولا) فى كتاب : (الاسوموار) فان عيشة الناس ليست

كلها سكرا ، وليست كل الأبنية ، ولا غالبها فى المدائن حانات وخمارات . كما أن جميع النساء لسن على تلك الحال التى وصفها . ولا ريب فى أن تولستوى أراد أن يبين عيوب التربيـة الحاضرة وقتئذ ، وأنماطها المتخذة لتعليم البنين والبنات ، فكتب هذا الكتاب ليجعل الناس يلمســون بالحس نقص تلك التربية ، ليلفتهم الى التربية التى لها قاعدة من الاعتقاد الدينى ترتكز عليها لتأتى بنتائج السعادة المنشــودة فى العـائلة . أقول ان هذا النظر لا يخرج تولستوى من كتاب الواقع ، كذلك يؤكد زعمنا سؤاله (ما العمل ؟) و (الذى يجب عمله) ، وان كان له ما يصح أن يجعله من كتاب الخيال كبعض قطع (الايمبتاسيون) و (حرب وسلام) . فكذلك لا يكون الا لأن عادة عدم التقيد بالمذاهب الضيقة التى اتخذها شعاراً له قد غلبت عليه . وليس لنا أن ندخل فى بحث موضوعاته الدينية ، وتعاليمه اللاهوتية ، بل نترك الحكم على ذلك لغيرنا .

فتحي زغلول

أرى من الوفاء لمبادىء الحرية وخادميها أن أذكر صديقا عظيما عمل لنشر هذه المبادىء ، هو المرحوم أحمد فتحي زغلول باشا ، فقد نظر نظرة صادقة الى حال الأمة المصرية وحكومتها ، فرأى انها أحوج ما تكون الى معرفة المثل الأعلى الذى تبغي الوصول اليه من نظمها السياسية والاجتماعية حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة ٠٠ ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلماء هي نقل العلم الى أوطانهم بالترجمة ٠٠ ان هذه الطريقة كانت هي ألف باء النهضة العلمية في كل أمة وفي كل زمان ٠

هذه النظرية الصادقة كانت رائد فتحي باشا في خدمته لوطنه منذ خرج من المدرسة الى أن مات ، فانه في سنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب « العقد الاجتماعي » لجان جاك روسو ، فلم يتمه ٠ ولكنه ترجم بعد ذلك « أصول الشرائع » لبنتام ٠ و « خواطر وسوانح في الاسلام » للكونت هنرى دى كلتزى ٠ و « سر تقدم الانجليز السكسون » لريمون ديمولان ٠ و « روح الاجتماع » و « سر تطور الأمم » لجوستاف لوبون ، و « جوامع الكلم » لجوستاف لوبون ، وقد نشرت هذه الكتب كلها ٠٠ وله فوق ذلك كتاب « بورجار » في الاقتصاد السياسي ، و « تمدن العرب » لجوستاف لوبون ، و « جمهورية أفلاطون » و « الفرد ضد المملكة » لسبنسر ٠٠

أما مؤلفاته ، فهي كتاب المحاماة ، ورسالة في التزوير ، وشرح القانون المدني ٠٠ وقد ألف قبيل وفاته كتابا في « التربية العامة » ٠

نابغة فى الترجمة

عرفت مترجماته وقرأت المنشور منها ، وتصفحت غير المنشور ، وأستطيع أن أقول ، من غير تردد ، أن فتحى زغلول كما كان نابغة فى الفقه ، كان نابغة فى الترجمة يمسك الكتاب يقرؤه أولا ، ثم يدخل بنظره الحاد فى طيات نفس الكاتب ، فيظهر أسرارها بقلمه العربى المبين • ومن التراجم ما تترجم الألفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته ، فلا يكون لها تأثير • أما مترجمات فتحى زغلول ، فانك تقرأ فيها المعانى والأغراض كأنك تقرأ كاتبها من غير فرق •

دخلت عليه فى بيته يوما بمصر الجديدة فى يوم حر شديد ، فألفيته يضع شرح القانون المدنى ، والى جانبه « سر تطور الأمم » وقد فرغ من ترجمته فى بضعة أسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه ، فأشفقت عليه من هذا الجهد الشاق فى ذلك الجو المحرق ، على ما نعهده فيه من رقة فى الصحة وعمل دائم طول سنة العمل ، وقلت له : « أبهذا ترتاض يا سيدى الباشا ؟ » فأجاب : « نعم هذه هى رياضتى ! •• » •

فعجبت لجلده وصبره وتفانيه فى خدمة العلم وخدمة بلاده •

شخصية ممتازة

كان لفتحى باشا شخصية ممتازة فى طريقة اسلوبه البيانى • ولم يكن يترجم ليترجم ، ولا طلبا للشهرة والمال من وراء ذلك • وكان حسبه شـــهرة مناصبه العالية وكفاءته التى ما كانت يوما موضعا للشك من أحد ، سواء فى ذلك أصدقاؤه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه • ولكننا اذا أجملنا مترجماته دلنا مجموعها على أنه كان له غرض ثابت يرمى اليه من وراء نشر هذه الكتب •

غرضه نشر مبادىء الحرية : حرية الفرد ، وحرية الأمة . وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعا الى اتخاذ مثل أعلى قبلة لهم فى آمالهم الوطنية .

منذ سنة ١٨٨٢ كان يرى الأمة تتقلب فى أحوال متناقضة مبهمة ، فكانت تسوءه هذه الأحوال ، ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج .. كان يود لو تدرك الأمة أن ابهام الغرض وعدم ادراكه بوضــوح يجعله مستحيل المنــال ، لذلك أراد أن يقدم للجمهور « العقد الاجتماعى » لروسو حتى يتبين الجمهور حق الأمة وما يجب أن يكون لها من السلطان .

وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغا كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصـــول الحقوق والواجبات ، حتى جاء الزمن الأخير فظهر الشعور الوطنى بمظهر جميل ، ولكنه لا يزال فى مقاصــده بعض اللبس حتى فيما هو مكتوب من المبادىء فى الصحف ، وما الصحف الا ترجمان الرأى العــام .

ايمانه بالاشتراكية الديمقراطية

ولعل فتحى باشا أمام هذه المشاهد أشفق على حرية الأفراد ، وتربية الأمة من الميل الظاهر الى ما يشبه الاشتراكية ، فان الناس لم يقتصروا فى طلبهم على حقوق الأفراد من الحرية وحق الشعب من السلطة ، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شىء . ومهما كان فى أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمنى الا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هى كل شىء والفرد لا شىء !

الاشـــتراكية قد تكون معقولة اذا كان للشعب شـــأن فى تنصيب الحكومة ، والا فهى اشتراكية معكوســة النتائج ، فأخذ فتحى زغلول عن بعـد يهـــدى الأفـراد الى وجوب الاســتمساك بشخصيتهم ، ويبين لهم أن التربية الشخصية هى التى كانت سر تقدم الانجليز السكسون ، فطلب الى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء ، وألا يفنوا شخصيتهم ، فيفنى وجودهم ، واستطرادا فى هذا النظر تصدى لترجمة « الفرد ضد الأمة » و « روح الاجتماع » ، و « سر تطور الأمم » ـ كل ذلك لينشر فى الجمهور الأسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حالهم على هذه الأصول ، فينتفعوا بتجارب الأمم ٠

ان توفيق فتحى باشا فى اختيار مترجماته يدل فوق ما قدمت على أنه كان يعتنق مذهب الاشتراكيين الديمقراطيين ، سواء أكان ذلك فى التربية والتعليم أم فى الأصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضا ٠

ولو شئنا أن عقائده من منتجاته وأحاديثه لضاق بنا المقام ، ولكننى أكتفى بالاشارة الى أن بين اختياره لتلك المؤلفات ، وبين مذهبــه الديمقراطى الاشتراكى فى محاولة الاصـــلاح الاجتماعى والسياسى نسبا متصلا جد الاتصال ٠

رجل تطور

من ذلك نعلم أن فتحى زغلول كان رجــل تقدم تطورى ٠ فكما أنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن فى ذاته ، ولكنه القانون الذى يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى أن خير المبادىء الاجتماعية والسياسية ما كان بينه وبين طبـائع الشعب وعاداته نسب يكمل ما فيها من نقص ، ويقوم ما بها من اعوجاج ٠

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة .. فاذا لم يكن نشرها يتفق مع مركزه فى الحكومة ، فقد نشرها بالترجمة ليرضى دواعى ضميره ، وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة مع معرفة الحقوق والواجبات ، فليس فتحى على ذلك من أصحاب المناصب ، بل هو من أرباب المذاهب .

ومن كان كذلك من شأنه أن يكون شقيا معذبا ، يكاد لا يكون له من راحته ووقته نصيب ، فهو مقسم بين الأعمال الرسمية الشاقة ، وبين خدمة العلم ، يعمل فى التأليف والترجمة شطرا من الليل ، وأحيانا طول الليل ومدة العطلة ، فاذا لامه فى ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة الفيلسوف لا يبالى مات اليوم أو مات غدا .

نعم كان العالم المفكر فتحى زغلول يرى أن الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح ، لا بعدد السنين والأيام .

مثال الموظف المتفانى

وقد كان فتحى زغلول أصغر أنجاب المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان أبيانة . ولد فى تلك القرية فى ربيع الأول سنة ١٢٧٩ هـ . ومات أبوه اذ كان رضيعا ، وكان شقيقه سعد زغلول فطيما . خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى احدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بالغربية . وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاوز عمرها العشرين ، فقامت على ولديها ، ووقفت نفسها على تربيتهما تحت اشراف أخيهما الكبير لأبيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الأعيان .

تعلم « فتح الله » الصغير فى كتاب البلد ، ثم فى مدرسة رشيد ، ثم فى المدرسة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الألسن . فاتفق أن زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فأعجب بذكاء

الشـاب « فتـح الله » وأعطاه اسم أحمد ، ونحت من فتح الله « فتحى » وأصدر أمرا رسميا الى المدرسة بتسميته أحمد فتحى ، وبأن يرد اليه ما دفع من المصاريف المدرسية ، وبأن يتعلم بالمجان ، لدرس الحقوق ، فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . فوظف بقلم قضايا الحكومة ، ثم رئيسا لنيابة أسيوط ، ثم رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم مفتشا بلجنة المراقبـة فرئيسـا لمحكمـة الزقازيق ، ثم رئيسا لمحكمة مصر ، ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، وهى الوظيفة الأخيرة التى مات وهو قائم بها .

كان فتحى مثال الموظف المتفانى فى أداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره أحيانا . ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجما أمينـا ومؤلفا كبيرا .

ان شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الاخلاص ـ تلك الصفات التى ظهرت آثارها على فتحى باشا منذ شبابه الغض ، راجع معظمها الى التأثير الوراثى من أبويه ، وعلى الأخص والدته التى أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الأصل وبما غرست من المبادىء الصالحة مما جعل لفتحى شخصية ممتازة منذ صباه .

ولا عجب فأمهاتنا نحن القرويين منهن مع بساطة فى المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف على جانب عظيم من الذكاء الفطرى ورفعة الأخلاق ، وعزة النفس ، والذوق السليم فى الحكم ، والطيبة والتقوى فى المعاملات . ينقلن هذه الصفات لأبنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثى ، فتكون لهم رأس مال فى الحياة العملية . ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق ..

فللأمهات القرويات أن يقبلن شكر الجيل الحاضر ، وعلينا أن نعترف علنا بما للأمهات من الأهمية العظمى فى توريث البنين والقيام على تربيتهم الأولى ·

وأمامنا المثل الحسى : ان هذه الوالدة القروية ينسب اليها الفضل الأكبر فى أنها أخرجت لمصر نابغتين عظيمين : سعد زغلول وشقيقه فتحى زغلول ·

الفصل الحادى عشر

* معظم النار من مستصغر الشرر ٠
* قلت لرشدى : أتدخل الحرب مجانا يا باشا !! ٠
* كسرت قلمي واعتزلت السياسة والصحافة
* لماذا ترجمت مؤلفات أرسطو ؟ ٠
* ألفنا أول مجمع للغة العربية ٠٠٠ ثم فشل ٠

معظم النار من مستصغر الشرر

وقع ما كان يخشاه العالم بأسره ، وعم الخطب سنة ١٩١٤ ولم يبق بعد سبيل الى السلام ، ولم يكن لينتظر أن الخلاف المحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل الى النتيجة التى وصل اليها ٠ وهنا نورد المثل المشهور : « معظم النار من مستصغر الشرر » ٠

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية ، والوساطات الملوكية والامبراطورية عن تأييد السلم وحقن الدماء ، وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى أوربا اذ نفخ فى صوره ففزعت لدعوته الملايين ، انقلبوا عن صورهم المدنية ، فأصموا آذانهم عن دعوة الاخاء الانسانى ، واستدبروا نهائيا مبادىء المحبة والغفران والسلام ، وغشى الغضب أبصارهم ، فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة الكبرى التى يجنيها المحاربون من وراء الحرب سواء فيهم الغالب والمغلوب ٠ واستهانوا بالأضرار التى تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة ، التى ليس فيها من البركة شيء ٠

تلك حرب لم تكن كحروب القرون الأولى ، فان المدنية الحاضرة قد جعلت الكرة الأرضية أشبه بالوطن الواحد في المنافع الاقتصادية التى هى أساس العمران ، بل علة الحياة ، أجزاؤه متضامنة فى الخير والشر ٠ أقفلت أسواق أوربا وميزان الحركة الاقتصادية العامة معلق بين أصابعها ، فأخلت بالموازنة فى كل شىء حتى فى أسعار الأقوات في كل البلاد ، وأصبحنا فى مصر ونحن بمركزنا الاستثنائى بعيدين عن هذه الحركة الحربية نشعر من أول يوم بالرجات الشديدة التى انتابت سوقنا المالية ، وعلى هذا القياس كل أنحاء الكرة الأرضية ٠ أفلا يعلم الذين يعلنون الحروب بكلمة من أفواههم ، مقدار المسئولية التى يحملونها بهذه الكلمة الكبرى التى تسفك دماء الملايين من الأبرياء بالمعنى الصحيح الذين يتمثلون بقول القائل :

لم أكن من جناتهـــا علم اللـ ـــه وانى لحرها اليوم صـــالى

يقاد أحدهم من الدار الى النار ، لا دفاعا عن وطن مهدد ، ولكن ارضاء لشهوات العظماء ، ارضاء لرؤساء الأحزاب ، ارضاء لكلمات ضخمة مجوفة ترن رنين تمثال آمون وليس فى بطنها من الحقيقة شىء ٠٠ رحم الله « جوريس » أول قتيل لهذه الحرب ، وأول ضحية من ضحاياها الذاهبة فى سبيل الحق والسلام ٠

قلت لرشدى

هذا وقد كان لمصر وقتئذ مصالح يجب أن نرعاها ، وكانت الوزارة الرشدية بالاسكندرية ، فاتصلت برئيسها صديقى المرحوم حسين رشدى باشا عن طريق التليفون ، وما كدت أخاطبه فى أمر عادى حتى قال لى :

ـ دع عنـك هـذا ، فان انجلترا أعلنت اليوم الحرب على المانيا ..

ودعانى للقائه فى اليوم التالى ببيته بالقاهرة .

وذهبت للقائه . فوجدت معه عدلى يكن باشا وزير الخارجية وهما يحلان تلغرافا بالشفرة من زميلهما محمد محب باشا ، وكان وقتئذ بصحبة الخديو عباس حلمى باستامبول ، فقال لى رشدى باشا :

ان انجلترا قد دخلت الحرب ، وقد كتبنا هذا باعلان الأحكام العرفية فى البلاد .

وسلمنى اعلانا ، فقلت له :

ـ أتدخل الحرب مجانا يا باشا .. ؟!

قال :

ـ بل احترزنا مما تخاف ، بأن قلنا « نظرا للاحتلال الفعلى لانجلترا فى مصر » .

فقلت له :

ـ أخشى أن يقول الناس ان هـذه سذاجة سياسية • فاذا كانت انجلترا تريد أن تجرنا معها الى هذه الحرب ، فلتعترف لنا أولا بالاستقلال •• !

قال رشدى :

ـ لم يفت وقت ذلك •• !

واتفقنا نحن الثلاثة على السعى لتعترف انجلترا باستقلالنا ، ونكفل لها مصالحها الى حد ان نعاونها بدخولنا معها الحرب اذا كان هذا ضروريا •

وقد كان أكثر رجال الوكالة البريطانيـة وقتئذ في أوربا بالأجازة • ثم كان « سـير ريجنلد ونجت » أول من حضر منهم ، فكلمه رشدى باشا في ذلك ، وصارحه بأن مصر مستعدة لمناصرة بريطانيا العظمى بشرط ان تعترف باستقلالنا ، فارتاع « ونجت » لهذه الفكرة ووعد بأن يعرض الأمر على حكومته • ثم جاء بعد ذلك مستشار الداخلية « سير جراهام » فلقيته وقلت له :

ـ ان مركزنا الآن دقيق ، فنحن تابعون لتركيا ، وهى ستدخل الحرب مع ألمانيا وأنتم محتلون بلدنا الذى أعلنت حكومته الحكم العرفى تضامنا معكم ، فلابد لنا من تنظيم هذه الحالة •• ولست أرى طريقا لذلك الا ان نعلن استقلالنا وننصب الخديو ملكا علينا ، وأنتم تعترفون بذلك •

فقال : تركيا لن تدخل الحرب ، وعندنا على ذلك ضمانات •

قلت : لم يكن دخـول تركيا الحـرب راجحـا ، أفـلا يكون محتملا • ؟

قال : كل شيء محتمل •• !

قلت : اذن ماذا يكون ؟! ..

فلما ألححت عليه في الاستدلال على ضرورة دخـول تركيـا الحرب وسوء مركزنا فى ذلك الوقت ، قال :

ـ يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون أنفسكم .. فحين ظهور أول طربوش تركى من القنال تتركوننا وتجرون وراءه .

وانقطع الحديث عند ذلك ، فأخبرت رشدى باشا بما حدث ، فقال لى أنه كلمه كذلك فلم ينل منه طائلا !

وحدث ان دعا رشدى باشا سير « ستورس » السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية ليتغذى معه بالكونتيننتال . وعلم بذلك محمد محمود باشا ، فدعانى أن أتغذى معهم الى جانبهم ، كى نعلم بعد الغذاء من رشدى باشا ماذا دار بينهما . ولما انتهينا قال لنا رشدى باشا :

ـ ان ستورس يؤيد فكرتنا كالسير ريجنلد ونجت ، ووعدنى بأنه سيخابر أباه العضو فى البرلمان البريطانى ليثير هذه المسألة عند الحكومة البريطانية .

كسرت قلمي

وكنت ، وقتئذ ، أتردد على عدلى باشا لأعرف الى اى حـد وصلت مسألتنا ، وذات يوم التقيت به فوجدته متشائما ، وبادرني بقوله :

ـ ليس عندى أمل فى نجاحنا ٠٠ !

فخرجت من عنده مكتئبـا كاسف البال ، وزارنى بعد أيام نجيب باشا غالى وكيل الخارجية فى ذلك الحين فسألنى قائلا :

ـ ما هو الأمر الذى تتردد من أجله على عدلى باشا ؟ ٠٠

فأفضيت له بما عندى ، وقلت :

« ان الأمر قد انتهى بالفشل ، ولهذا سأكسر قلمى ، وأذهب الى بلدى ، وأعتزل السياسة » ٠

وفى اليوم التالى كلمنى ستورس بالتليفون ، وقال لى :

ـ لا تيأس ٠٠ !

ثم كلمنى بعد دقائق نجيب غالى باشا يدعونى الى العشاء عنده أنا وستورس ـ وكان اللورد كتشنر قد عين وزيرا ـ فقلت لنجيب باشا :

ـ انى أقبل الدعوة بشرط أن يحضر معنا عدلى باشا ٠

فأجابنى الى ذلك ٠ واجتمعنا نحن الأربعة فى بيت نجيب باشا وحدثنا ستورس حتى ظننا أن النجاح فى متناول يدنا ، فوضعنا

فى بيت نجيب باشا صورة المعاهدة بيننا وبين بريطانيا العظمى تتضمن اعترافها باستقلالنا واعترافنا بمصالحها فى مصر وفى قنال السويس ٠

كل ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وكان الأمل يحدونا جميعا ٠

ذهبت بعد أيام قلائل الى عدلى باشا بديوان الخارجية فوجدته قد يئس نهائيا من تحقيق مطلبنا ، فخرجت من عنده وأنا مصمم على اعتزال السياسة ، ثم قدمت استقالتى من رئاسة « الجريدة » لرئيسها محمود سليمان باشا ، وسافرت الى بلدتى « برقين » ٠ وكان هذا آخر عهدى بالعمل الصحفى ٠

عدت موظفا فى الحكومة

ما كادت تمضى على اقامتى فى برقين مدة طويلة حتى عزل الخديو عباس ، وأعلنت الحماية على مصر ، ونصب الأمير حسين كامل سلطانا عليها ٠

وشاع بعد ذلك فى البيئات السياسية فى مصر ان تركيا حكمت بالاعدام على السلطان حسين وأعضاء وزارة رشدى باشا ، باعتبار أنهم قبلوا الحماية ، وعلى أنا أيضا باعتبار انى أثرت حركة سنة ١٩١١ ضد الأتراك ٠

وفى سنة ١٩١٥ كنت بالقاهرة ، فجاءنى أبى من « برقين » مذعورا وهو يقول انه قد أشيع عندنا ان سعد زغلول باشا قبض عليه ، فخشى أن يكون قد قبض على أيضا ثم ذهبت معه الى بيت على شعراوى باشا ، فقال لى شعراوى باشا : « ان ستورس سألنى

عنك ، وسأل هل جففت دموعك من يوم اعلان الحماية على مصر أم لا ؟ » • ثم قال لى : « ان السلطان حسين يرغب فى أن تدخل وظائف الحكومة » •

كل هذه الظروف جعلت أبى يستحثنى على أن أقبل الدخول فى الحكومة حتى لا يقبض الانجليز على • فقبلت ذلك ارضاء لوالدى رحمه الله • وعينت رئيسا لنيابة بنى سويف ليمكن ترشيحى قاضيا بالاستئناف • ولم آلبث فى بنى سويف غير أشهر ، وأرسل الى عدلى باشا بأن أحضر الى الاسكندرية ، ولما حضرت أخبرنى ان السلطان حسين مصمم على أن أكون مديرا لدار الكتب المصرية خلفا للدكتور شادة المدير الألمانى ، فقبلت ذلك •

لماذا ترجمت أرسطو ؟

نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد لفت نظرى فى أرسطو أنه أول من ابتدع علم المنطق ، وأكبر مؤلف له أثر خالد فى العلوم والآداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوربية ، فقد عمد رجال هذه النهضة الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة .

ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو ، فلا جرم ان آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وفى الحق أن أرسطو لم يكن كغيره معلما فى نوع خاص من العلوم دون سواه ، بل هو معلم فى الفلسفة ، معلم فى السياسة والاجتماع ، فهو كما لقبه العرب بحق « المعلم الأول » على الاطلاق ، وكما وصفه دانتى فى جحيمه « معلم الذين يعلمون » .

وقد ترجمت فى سنة ١٩٢٤ عنه « كتاب الأخلاق » . وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة . بل ان جانبا كبيرا منه يمهد لموضوع كتاب السياسة ، فأردت أن أترجمه ليستفيد منه قراء العربية .

أما القواعد التى وضعها أرسطو لعلم السياسة فما زالت هى القواعد السائدة بين الساسة ، وهى القواعد التى يدرسها الآن طلبة العلوم السياسية فى الجامعات ونحن نسمع الآن كلمات الاتوقراطية ، والديمقراطية ، والدكتاتورية ، وهى كلها من تعبيرات أرسطو وابتداعه .

وقد قال أوغست كونت : « الواجب على أن أنوه باسم أرسطو العظيم ، فان سياسته الخالدة هى بلا شك احدى النتائج الباهرة للزمن القديم .. على أنها الى هذا الوقت هى المنوال الذى نسجت عليه أكثر الأعمال التى جاءت بعدها فى هذا الموضوع » .

والسياسة عند أرسطو هى أشرف العلوم ، لأنه يعرفها بأنها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع الى السياسة سائر العلوم ، أو كما قال أرسطو أن السياسة تبين ما هى العلوم الضرورية لحياة الممالك ، وما هى العلوم التى يجب أن يتعلمها السكان ، والى أى حد ينبغى أن يعلموها .

أول مجمع للغة العربية

فى نحو سنة ١٩١٦ دعانى المرحوم اسماعيل عاصم المحامى مع عدلى باشا ورشدى باشا والأستاذ يعقوب صروف وآخرين فى بيته وتحدثنا عنده فى ضرورة ايجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعا لوزارة المعارف ، ولكنها تأويه فى دار الكتب المصرية ، وتمده بمساعدة عمالها وموظفيها فى أعماله الكتابية ، ودعوت حفنى بك ناصف وعاطف باشا بركات ، ووضعنا قانونا للمجمع ، وألفناه برياسة الشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر ، وكنت أنا سكرتير المجمع ، وأذكر من أعضائه الشيخ محمد بخيت ،

والشيخ عبد الرحمن قراعه ، وعاطف باشا بركات ، والأستاذ يعقوب صروف ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ الاسكندرى وحلمى عيسى باشا ٠٠ ومن ألطف ما أذكره عن هذا المجمع اننا مكثنا سنة كاملة نتناقش فى جواز التعريب !!

وقد انطوى هذا المجمع ولم يعمر طويلا ٠

الفصل الثانى عشر

- لماذا طلبنا الاستقلال التام ؟
- الأصدقاء الخمســة : سعد زغلول ، عبد العزيز فهمى ، على شعراوى ، محمد محمود ، أحمد لطفى السيد .
- ويلسون يوافق على الحماية !

لماذا طلبنا الاستقلال التام

فى سنة ١٩١٩ ، نهضنا نطالب بالاســتقلال التام ــ وقبل ذلك بزمن بعيد طلبناه ودعونا اليه ــ طلبناه على طرق متنوعة ، وبصنوف مختلفة . طلبناه من فرنسا ، ومن انجلترا ومن السلطة الشرعية ، طلبناه بأقلام الكتــاب ، وبألسنة الزعماء . لأن الحــرية هى معنى الحياة ، وفقدان الحرية هو الموت .

طلبنا الاستقلال التام لأن الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا . ولو كنا نعيش بالخبز والماء ، لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ، ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة ، بل ارضاء العقول والقلوب .. وعقولنا وقلوبنا لا ترضى الا بالحرية .

انا اذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئا كثيرا .. انما نطلب ألا نموت . ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب الا الحيــاة ووسائل الحياة . كما أنه لا أحد أقل كرما من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة .

لست أعجب من الذى يستهين بحياة الرجل ، فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى أعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالانسان

فيريد له الحياة شبعان ريان معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله وبين الأشياء والمعانى بحجاب فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها ، فلا تتحرك بل تموت ·

أعجب من الذى يظن الحياة شيئا والحرية شيئا آخر ، ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية ، هى المقوم الأول للحيـاة ، ولا حيـاة الا بالحرية ·

أجل ان المرء يحفظ حرية الفكر ، وحرية المشاعر ، أى يحفظ حرية الطبيعة حتى فى غيابة السجن · يحفظها فى كل حال هو عليها ما دامت روحه فى جسده · انه خلق حرا ·· حر الارادة ، حر الاختيار بين الفعل والترك ، حرا فى كل شىء حتى فى أن يعيش وفى أن يموت متى قدر له ·

لا فائدة من حرية معطلة

ان هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها اذا تعطلت من آثارها ، فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة ·· كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بهـا ، أى فقدوا بذلك الحرية المدنية ·

لا أريد بذلك أن أتصدى للتعريفـات الاصـطلاحية لأنواع الحرية ، ولكن جرنا اليـه التدليـل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حـكم المفقودة ، وأن الحرية الطبيعية الملازمة للانسان لا يصح أن تسمى حرية الا اذا كان ميسرا له استعمالها · رأيت ان المرء يرى الطريق بعينيه المكتوفتين ، لكن العين المعصوبة ، واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة ·· انما يكون المرء حرا بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية · وانما يكون حيا بمقدار ما حاز من الاستمتاع بالحرية · فالحرية الناقصـة حياة

حياة ناقصة · وفقدان الحرية هو الموت ، لأن الحرية هى معنى الحياة ·

طبعنا على حب الكمال

طبعنا على حب الكمال فى حياتنا ومعاداة كل العوارض التى تعرض لنا فى طريق المثل الأعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها · ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه ·· وسواء أكان هذا الشوق الطبيعى الى حياة الحرية مصدر سعادة أم مصدر شقاء ، فانه على كل حال نار تتأجج بين ضلوع الحى لا تبرد أو تصل به الى المرغوب · أجل أن المثل الأعلى ليس نقطة ثابتة ، ولا غرضا محدود المسافة يمكن بلوغه ·· بل كلما بلغناه انتقل شبحه أمامنا الى نقطة أخرى على بعد مرمى النظر لسنا بالغيه ولا منصرفين عن التشبث بتركه ، بل تسوقنا اليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها ·· ولو كلفنا أن نركب متن التعسف !؟

ولهذا يستغلق علينا فهم الأباطيل القديمة التى كانت الغطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا فى هاوية التناقض ·

يقولون أن بعض الناس خلق للسيادة أبدا ، وبعضهم خلق للعبودية أبدا · ولا نزال نرى هـذا خطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين على صورة أقل شناعة ، وبعبارة أكثر ائتلافا مع مدنيتنا الحديثة ·· يضعون أصابعهم فى أعينهم ، اذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصادقة هى هذه الجزئية : « **بعض الانسان لا انسان** » ·

كذبت فلسفتهم

كذبت فلسفتهم ، وصدق الذى يشعر به كل انسان منا فى نفسه من الميل الى الرقى فى كل شىء ، والى الحرية قبل كل شىء ·

صدق هذا الأثر الذى نجده فى طليق الأسير أو السجين يوم اطلاقه ، وفى محاولة المعقول أن ينشط من عقاله . صدق ذلك الألم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته عن التصريح بها ، فتظل تجول فى نفسه ، ويغلى فى صدره حب ابدائها ، ويقلق ذلك خاطره ، ويكد ضميره ، ويحتوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت فى ارضاء هذا الحب على الحياة فى كتمانه . وكم من عالم استحب الموت على الحياة فى سبيل حبه لحريته العلمية .. فمنهم من قتل ، ومنهم من أحرق ، ومنهم من حبس أو عذب . وجلهم من تلك الأمم التى يقولون انها خلقت لغير السيادة . فاذا وجدت عبدا لم يؤثر الحرية على العبودية ، ولم يطب نفسا بالعتق من الرق ، فذلك مثل من الأمثلة النادرة فى بنى الانســـان ، وليس قاعدة يصح الأخذ بها .

ان الذى يراجع الماضى لا يجد أمة من الأمم المخلوقة للعبودية — كما يزعمون — الا قاتلت عن حريتها . واذا كان أصدق المعلومات هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة ، فالانســان — على الرغم من فلسفة المستعمرين — حر بطبعه ميال الى الحرية ، ميال الى الارتقاء فيها الى المثل الأعلى ، وفى سهولة الوسائل الموصلة اليه .

الحرية طبيعية

الحرية طبيعية وميل الناس الى تحصيلها طبيعى بالضرورة ، يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضعف وتخمد آثاره مع الضعف ، فكما أن القوى لا يموت جوعا كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثل الأعلى للحرية .

ولقد أصــــبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلهــا الأصلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان . فقد أصبحنا نمتعض من

كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية والمدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنيــة، وأصبحنا كذلك نرى أن الحـكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هى حكومة الدستور ٠ ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن استقلال الأمة هو الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج فى مراقى الحرية والتقريب من مثلها الأعلى المتفق عليه بيننا ، الا الوسائل المنتجة ٠ فان ادارة الأمر شيء والقدرة عليه شيء آخر ٠

أما القوة فان طبيعتها تختلف فى كل زمان ومكان تبعا لطبيعة عيشة الأمة واعتقاداتها الدينية وعاداتهــا وأخلاقهــا ، ونتيجتها تختلف دائما باختلاف طبيعة الوسائل التى يمكن استخدامهــا ٠ وعندنا أن أول مظهر للقوة هي القوى المعنوية قوة الحرية العلمية فان الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة خصوصا في الأزمان الحاضرة معارضة تذكر ٠ فاذا استخدم المتعلمون ارادتهم فى اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم فى تربية أخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأى والصبر على الأذى الذى ينتج دائما عن حرية الرأى سواء أكان من الحكام أم من المحكومين ٠

ان الذين يبخلون علينا بالقرب من المثل الأعلى من حريتنــا التى أتانا الله اياها من فضله ، يجدون أمثلة تقصيرنا فى اظهــار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى ارادتنا على البقاء على ما نحن عليه ٠ فاذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العلمية الإرادية قلوة لا يقف أمامهــا استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء ولا استدرار المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا إلى المثل الأعلى لحريتنا ٠ ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها غير كافية فى تقريبنا من مثلها الأعلى ٠ أقول وأؤكد أنها هى وحدهــا

كافية فى انالتنــا طلبتنا • فلنرض نفوسنا على الاستمساك بهــا ولننتظر النتيجة •

ان تقدمنا فى نيل قسطنا الطبيعي من الحرية يستحيل أن يوجد ولو كانت فى أيدينــا أكبر معدات القوة الوحشية ، وكان عددنا أضعاف ما نحن عليه ، اذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والأفكار من غير تمحيص اعتمادا على مكانة قائلها • واذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والأوهام التى أفسدت علينا الاستفادة من المبادىء الجديدة • اننا اذا جربنا أن نرفع منار الحرية فى الميدان الذي لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لاظهــار شيء من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأييدها •

الأصدقاء الخمسة

ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلهـا الأعلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان ، وصرنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية المدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية ، وأصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هى حكومة الدستور وان الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، هى الاستقلال التام ٠

★ لهذا نهضنا نهضة مباركة ، وهدفنا هذا الغرض العظيم . وبدأنا نحن الأصـدقاء الخمسة : « سـعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وأنا » ٠٠ نفكر فى كيفية الاستفادة من المبادىء الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ويلسون فى جملتها على أن كل أمة مهما صـغرت ، لهـا الحق فى اختيار مصيرها ، وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض ارادتها وحريتها ٠

وفى نوفمبر سـنة ١٩١٨ ، بدأنا نؤلف الوفد المصرى ، واستقلت من دار الكتب المصرية ٠٠ وأخذنا نعمل فى ذلك الحين على ما جاء فى « مذكرات صديقى عبد العزيز فهمى » باشا (١) ٠

ولا أستطيع بالضبط أن أروى الآن ما جرت به الحوادث من

---

(١) هذه المذكرات صـفحات نفيسة من الثورة الوطنيـة فى مصر لا غنى لقارىء تاريخ مصر عن قراءتها ٠٠ وسننشرها قريبا فى سلسلة كتاب الهلال ٠

وقت تأليف الوفد ، وان كنت قد كتبت بها يوميات لكنى اضطررت لاحراقها ، كما سأقص هنا :

بعد أن نفى الى مالطة أصحابنا الأربعة : سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل · قامت فى البلاد ثورة عنيفة فى أوائل سنة ١٩١٩ · كانت من الخطر بحيث لم نكن نتوقعها ، حتى لقد ألفت فى مديرية المنيا جمهورية برياسة الدكتور محمود عبد الرازق بك الطبيب ، وقطعت سكة الحديد بينها وبين القاهرة · وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات فى بعض مديريات الوجه البحرى ، فدعتنا نحن أعضاء الوفد الباقين السلطة العسكرية للمثول أمامها فى فندق سافوى · وكان بين ضباطها العظام مستر ايموس ·· فلما مثلنا أمامها وجه القائد العام الينا الكلام ، محملا ايانا مسئولية الثورة ·· فكان جوابى على هذه التهمة :

« ان الوفد برىء منها ، وان تبعتها تقع على السلطة العسكرية التى نفت أربعة من رجال الوفد المصرى بلا ذنب أتوه الا أن يطالبوا بحرية بلادهم · ثم قابلت المظاهرات البريئة بالمترليوز ، فغضب أهالى البلاد لقتل أبنائهم ، وقاموا بهذه الحركة · وانى أنصح للسلطة العسكرية أن تستدعى حسين رشدى باشا ، أو عدلى يكن باشا ، أو ثروت باشا ليؤلف وزارة تعمل على ترضية الأمة ترضية كافية · وبهذا يقضى على الثورة » ·

وبعد لقائنا لرجال السلطة العسكرية بأيام قلائل ، كنت مع صديقى عبد العزيز فهمى مجتمعين فى منزل على شعراوى ، فوفد علينا صديقنا الدكتور يوسف نحاس ، فقال لنا انه علم عن ثقة ان السلطة العسكرية الانجليزية ·· ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين ، وتقبض على أربعة منهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى ، وتصادر أملاكهم » ·

على هذا الخبر ، قمت أنا وعبد العزيز باشا ، وركبنا سيارة شعراوى باشا ، وأوصلت عبد العزيز الى منزله بمصر الجديدة ، وذهبت الى بيتى بالمطرية ، فأحرقت كل أوراقى السياسية ، لأنه لم يكن عندى الوقت الكافى لفرزها . وكان من بينها يوميات الوفد التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى باشا ، وعدلى باشا ، وثروت باشا .. أحرقتها خوفا عليهم من أن يصيبهم ما سيصيبنا من عنت واستبداد ونكال .

ويلسون يوافق على الحماية

جلست بعد حرق هذه الأوراق فى مكتبى ، انتظر التفتيش والقبض حتى الصباح . ولكن لم يكن من ذلك شىء .. وفى هذا الحين عين المارشال اللنبى معتمدا بريطانيا فى مصر ، وأعلن أنه يقبل من أى كان ما يراه فى أمر وقف الثورة القائمة ، وعودة السكينة والسلام الى البلاد . فأرسل اليه الوفد تقريرا شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها الى تصرف السلطة العسكرية العنيف ، ونصح بتنصيب واحد من الثلاثة المذكورين سالفا رئيسا للحكومة ، والافراج عن المنفيين الأربعة واعطاء البلاد الترضية الكافية .

وعلى أثر وصول هذا التقرير اليه استدعانا وأخذ يناقشنا ، حتى اقتنع بما فيه ، فتالفت وزارة برياسة حسين رشدى باشا ، وصدر الأمر بالافراج عن المنفيين ، وأبيح لنا السفر الى انجلترا على باخرة عسكرية انجليزية ، ذهبت بنا الى مالطة ، فاصطحبنا زملاءنا : سعدا ، ومحمد محمود ، وصدقى ، وحمد الباسل . حتى اذا ما وصلنا الى مرسيليا جاءنا تلغراف بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر ، فكانت صدمة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب ، وأعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم أجمع بالغبطة والاعجاب ، وبخاصة عند الشعوب المهضومة .

فى مؤتمر السلام

ذهبنا الى باريس ، وتقدمنا لمؤتمر السلام ، فأغلق أبوابه أمامنا ، وقابلنا أعضاؤه على النحو الذى أيأسنا منه ، ووصفه صديقى عبد العزيز فهمى باشا فى مذكراته ٠

ولما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رياسة المفاوضات ، وانتقل الأمر الى خصومة كان مظهرها التلاحى ، اعتزلت السياسة ، ثم عرض على ان أرجع لدار الكتب المصرية ، فرجعت اليها ، وأخذت أشتغل بها وبترجمتى لمؤلفات أرسطو ، وبالجامعة المصرية القديمة التى كان رشدى باشا رئيسا لها ، وكنت وكيلا لها ٠

وأذكر انى فى سنة ١٩٢٢ وضعت منهاجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وقابلت الملك فؤاد ، وعرضت عليه هذا المنهاج ، وطلبت ان تجعل الحكومة شهادتها كشهادات المدارس العليا ، ما دام منهاجا يقضى بموافقة الحكومة عليه وتمثيلها فى الامتحانات ، فكان جواب الملك فؤاد :

« ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة ، فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها ٠٠ » ٠ فاغتبطت بذلك وجمعنا مجلس ادارة الجامعة والجمعية العمومية ، ليوكل رشدى باشا فى التعاقد مع الحكومة بشروط وضعت لتحقيق هذا الانضمام ٠

الفصل الثالث عشر

* كيف اسسنا الجامعة
* الجامعة مصدر التطور القومى
* البنات .. كيف التحقن بالجامعة

اسسنا الجامعة

ذكرت أن الملك فؤاد قال لى ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا ، وأنه يمكن اعتبار الجامعة المصرية كلية آداب فيها ..

على هذا الوعد عقدنا مجلس ادارة الجامعة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية . وكتبنا بذلك عقدا أمضاه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة . وعنيت بأن أذكر فى شروط هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة .

وقد يكون من المفيد أن أسجل فى هذه الصفحات ذلك العقد وتلك الجلسة التاريخية التى تم فيها هذا التسليم على النحو الآتى :

نظرا الى أن الجامعة المصرية طلبت الى وزارة المعارف العمومية أن تعتبر شهاداتها كشهادات المدارس العالية التى تخول التوظف فى الحكومة ، فأجابت الوزارة بما يأتى : « ليس فى وسع وزارة المعارف الاعتراف بالشهادة التى تمنحها الجامعة لمتخرجيها بالكيفية المرغوبة ما دامت بعيدة عن الاشراف على الدراسة فيها » •

ولما كانت الوزارة معتزمة انشـــاء جامعة أميرية فسـيكون بالضرورة بين أقسامها كلية للآداب قد تنافس كلية الآداب للجامعة المصرية • فاذا رأيتم تلافيا لهذا التنافس ضم كلية الآداب بالجامعة المصرية الى وزارة المعارف ، فان النظام العام الذى يوضع للجامعة الأميرية سيكون شاملا لها فتصبح نواة لقسم الآداب بها •

ومتى تم هذا الضم شرعت الوزارة فى فحص منهج الدراسة بهذه الكلية ونظام الامتحان بها ليكون ذلك توطئة لتقدير درجة الشهادة التى تمنحها •

فاذا ما وافقت ادارة الجامعة على وجهة النظر هذه فان وزارة المعارف مستعدة للنظر فيما يلزم لتحقيق هذا الغرض •

ونظرا الى ان الجامعة المصرية المؤسسة فى سنة ١٩٠٨ تحت رئاسة سمو الأمير أحمد فؤاد ــ جلالة الملك فؤاد الأول ــ انما كان الغرض منها القيام بأمر التعليم العالى الحر ، مقام الحكومة التى لم تكن وقتئذ لتوجه العناية الكافية الى هذا الأمر •

ونظرا الى أن الجامعــة المصرية لقلة مواردهــا ولعدم اعتبار شهادتها فى التوظف بوظائف الحكومة لا تستطيع أن تتم تكوينها بانشاء الأقسام المختلفة للعلوم • بل هى بحيث لا تستطيع بسهولة أن توسع كلية الآداب الى الحد المرغوب فيه •

ونظرا الى أن الذى يهم القائمين بالجامعة ، هو أن توجد بالبلاد جامعة مستقلة حرة يرتقى فيها التعليم العالى الى المستوى الذى يأتلف مع أطماع البلاد فى الارتقاء العلمى • لذلك رحبوا بفكرة توحيد الجهود التعليمية واندماج الجامعة المصرية فى الجامعة الجديدة • وأهم ما اشترطوا لذلك ضمانة حرية الجامعة الجديدة فى ادارتها المالية ووضع برامجها وتنفيذها ثم استيفاء آثار الحركة القومية المباركة التى أوجدت الجامعة المصرية • ولهذا اقترح أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية على جمعيتهم العمومية ان تفوض مجلس ادارتها فى تسليم الجامعة الى وزارة المعارف بالشروط التى لا تخرج فى شىء عن ضمانة حرية التعليم واستقلاله واستبقاء الحركة القومية نحو التعليم فى سنة ١٩٠٨ فقررت الجمعية العمومية ذلك بالاجماع وندب مجلس الادارة الى تحقيق هذه الغاية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية •

بناء على هذه الاعتبارات

اجتمع حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية وحضرة صاحب المعالى أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بوزارة المعارف العمومية لتحقيق هذه الغاية •

وبعد الاطلاع على الوثائق الآتية :

١ ـ كتاب وكيل الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ •

٢ ـ جواب وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ردا على ذلك الكتاب •

٣ ـ الاقتراح المقدم من أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية الى جمعيتها العمومية ٠

٤ ـ محضر جلسة الجمعية العمومية للجامعة المصرية المنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ٠

٥ ـ محضر جلسة مجلس ادارة الجامعة المصرية المنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ٠

٦ ـ مشروع لائحة الجامعة الجديدة ٠

٧ ـ مشروع الأمر العالى بتأليف الجامعة المذكورة بعد الاطلاع على هذه الوثائق وارفاق صورها بهذا المحضر ٠

وبعد تبادل النظر فى كل جهة من جهاته بين الطرفين تم الاتفاق على ما يأتى :

المادة الأولى

قد تنازل باسم الجامعة المصرية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيسها عن هذه الجامعة مع كل ما تمتلكه من منقول وعقار الى وزارة المعارف العمومية على الشروط الآتية :

١ ـ ان تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدير شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت اشراف وزارة المعارف العمومية كما هى الحال فى جامعات أوربا ٠

٢ ـ أن تقوم الحكومة باتمام النظام الحالى الذى لا يشمل سوى كلية فى الآداب بأن تدمج فى الجامعة مدرستى الحقوق والطب بعد تحويلهما الى كليتين وان تضم اليها كلية للعلوم ٠ ويجوز ان تضم اليها كليات أخرى فيما بعد ٠

٣ ـ ان تستعمل نقود الجامعة البالغ قدرها نحو ستة وأربعين ألف جنيه فى البناء احتراما لشروط بعض الواقفين ٠

٤ ـ ان تحترم تعهدات الجامعة نحو أساتذتها وموظفيها الحاليين ٠ أما فيما يتعلق بالدكتور طه حسين فقد رؤى نظرا لحالته الشخصية ان يبقى أستاذا بكلية الآداب ٠

٥ ـ ان يكون من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى عضو أو أكثر فى مجلس ادارة قسم الآداب وفى مجلس ادارة الجامعة وذلك فى الدور الأول من التشكيل استيفاء لآثار النهضة القومية التى أوجدت الجامعة المصرية ٠

المادة الثانية

قبل حضرة صاحب المعالى أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف العمومية باسم هذه الوزارة هذا التنازل واستلام الجامعة المصرية وما تملك من منقول وعقار لادماجها فى الجامعة الجديدة بالشروط الخمسة المبينة بالمادة الأولى ٠

المادة الثالثة

ينفذ هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى ٠

المادة الرابعة

كتب من هذا الاتفاق نسختان تحفظ احداهما فى وزارة المعارف العمومية وتحفظ الثانية فى محفوظات كلية الآداب التابعة للجامعة ٠

تحريرا بوزارة المعارف العمومية

فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣

رئيس الجامعة المصرية

حسين رشدى

وزير المعارف العمومية

أحمد زكى أبو السعود

رسالة الجامعة

وعلى أثر تكوين الجامعة الجديدة وضعنا لها قانونا رأى الشارع فيه ان رسالة الجامعة يجب ان تكون أوسع مجالا من ان تحد بحدود معينة ، فجاء نص رسالتها مرنا يتسع لكل ما تقدر عليه من الألوان المختلفة لخدمة العلم والقيام بالتعليم • وقد جاء فى مادته الثانية « أن اختصاص الجامعة يشمل كل ما يتعلق بالتعليم العالى الذى تقوم به الكليات التابعة لها • وعلى وجه العموم ، فان عليها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل لرقى الآداب والعلوم فى البلاد » •

واعتمادا على هذا النص المرن ، الذى يتناول كل تطور جامعى لخدمة العلم والتعليم والآداب والفنون المختلفة فى البلاد ، اعتمادا على هذا النص كانت رسالة الجامعة متعددة النواحى •

فمن رسالة الجامعة ان تقوم البحوث العلمية فى العلوم وفى الآداب التى تنتج عندنا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة فى النظريات العلمية التى هى فى تطور مستمر ، والتى تنتج الوصول الى اكتشافات جديدة تضاف الى ما اكتشفته الجامعات الأخرى مما له صبغة علمية بحتة ، ومما له تطبيقات عملية تنفع الناس فى أن تسخر لهم قوى الطبيعة وموارد الطبيعة • وليس خافيا ان الجامعة اذ تقوم بهذه الرسالة تحمل عن مصر واجبها من المشاركة العامة فى رقى العلوم والمعارف فى العالم •

ومن رسالة الجامعة تربية شبيبة الأجيال المتعاقبة لتهيىء للبلاد قادتها فى جميع مرافقها • ولا شك ان قوة الأمة ومنعتها

واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة ليست آخـر الأمر الا نتيجة لتربيتها الجامعية ٠

ومن رسالة الجامعة نشر الثقافة العلمية والأدبيـــة فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك باباحة الانتساب الى معاهدها المختلفه من غير قيد ولا شرط ، أم بالقاء المحاضرات العامة فى العلوم والآداب والفنون ، أم بنشر المؤلفات فى كل فرع من الفروع ٠

ومن رسالة الجامعة مســـاعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة ، التجديد فى النثر والشعر ، التجديد في نظرة الناس الى الفنــون الجميلة والبحث فى وجـوه ترقيتها وشيوعها ٠ ولا يفوتني ان انبه الى ان هذه الرسالة تتناول أيضـــا الموسيقى والغنـــاء ، لما لهما من الأثر الطيب فى الأخلاق ، بل لأنهما كذلك لهو جميـــل لابـــد منـــه ٠ وعلى كل أمة ان ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها ان ترقى أسباب جدها العابس ٠

وأخيرا ، فان الجامعة بما هى من أكبر الوحدات الاجتماعية عددا وأسماها مكانة ، وأخطرها مسئولية ، وأشملها رسالة هى بكل أولئك مصدر اشعاع يشع منه التضامن القومى ٠ ففى العائلة يولد التضامن ، وفى المدرسة ينشأ ، وفى الجامعـــة يشب ويؤتى كل ثمراته ، ويضرب المثل الأعلى للتضامن فى جميع طبقات الشعب ٠

البنات ٠٠ كيف التحقن بالجامعة ؟

وبهذه المناسبة انبه على سبيل الاستطراد ان خطأ الجمهـور فى فهم رسالة الجامعة من أنها تنحصر فى تخضـــير موظفين لادارة الحكومة ٠ والواقع ان هذا الفهم لا ينبغى ان يكون من أغـــراض الجامعة الا عرضا ٠

ويتصل بخطأ الجماهير فى فهم أغراض الجامعة ، تلك المسألة التى كانت شائكة قليلة الأنصار فى الرأى العام · وهى مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات فى الجامعة لهن ما لاخواتهن الطلبة من الحقوق ، وعليهن ما عليهم من واجبات · ولا أخفى اننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الدين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بأخواتهن فى الدرس ، فقد حدث ان طلب الى بعض عمداء الكليات فى أول سنة لافتتاح جامعة فؤاد ان نقبل فيها البنات الحائزات للبكالوريا ، فأسررت لهم فى ذلك الحين ان هذه المسألة شائكة ، وانى أشك فى رضى الحكومة عنها · وعلى ذلك قررنا فيما بيننا ان نقبل البنات الحائزات على البكالوريا ، من غير ان تثار هذه المسألة فى الصحف أو فى الخطب ، حتى نضع الرأى العام والحكومة معا أمام الأمر الواقع · وقد نجحنا فى ذلك · وبعد ان سرنا فى هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه ، لقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط ، فلم نأبه لها ، لأننا على يقين من ان التطور الاجتماعى معنا ، وان التطور لا غالب له · ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كلاهما على أسباب كماله الخاص على السواء ، ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا فى الارتقاء القومى ـ كل أولئك جعلنا لا نحفل بهذه الضجة التى ما لبثت ان ذهب بها الزمان !

فكرة اصبحت حقيقة

وفى ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ احتفلت الجامعة بوضع الحجر الأساسى لمبانيها الحالية بحضور جلالة الملك فؤاد وكان هذا اليوم تاريخا مشهورا · ففى منتصف الساعة الثانية عشرة أقيم احتفال كبير فى المكان الجديد بالجيزة دعى اليه علية القوم من الأمراء ورجال

الدين والوزراء والآداب • وبعد أن وصل الملك فؤاد ، وقف وزير المعارف في ذلك الحين على الشمسى باشا ، فألقى خطبة بين يديه • ودعا الملك لوضع الحجر الأساسي بيده • وألقيت أنا خطبتي كمدير للجامعة • وقد سجلت فيها الأدوار التي مر بها التعليم في مصر ، وهي ثلاثة أدوار :

دور الدعاية ، ودور البدء في التنفيذ ، ودور التمام •• فأما الدور الأول فيبتدىء من يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اذ اجتمع نخبة من أهل الغيرة على التربية في دار المرحوم سعد زغلول باشا وتعاقدوا على الدعوة لانشاء الجامعة ، وقرروا فيما قرروا ان تكون الجامعة بمعزل عن السياسة • وقد أقبل الناس على الاكتتاب فيها والتبرع لها • واجتمعت جمعية المكتتبين في ديوان الأوقاف في ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ تحت رياسة الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد الأول) وسموها الجامعة المصرية ، ونفحتها الحكومة اعانة سنوية ، كما نفحتها الأوقاف خمسمائة جنيه اعانة سنوية أيضا •

أما دور التمهيد ، فكانت بمحاضرات الثقافة العامة التي كان يشرف عليها يوميا رئيس الجامعة وبارسال بعثات علمية للجامعة بلغ عددها أربعة وعشرين للتخرج في العلوم ، وليحضروا أنفسهم ليكونوا معلمين فيها •

وأما دور التمام ، فكان بنقل الجامعة القديمة الى الجامعة الجديدة على نحو ما وصفت في السطور السابقة وقد بلغ عدد طلبة الجامعة في سنة ١٩٢٨ ويوم تأسيس مبانيها ٢٣٤١ طالبا • وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك حتى وصل الى ما وصل اليه الآن •

الفصل الرابع عشر

من الوزارة
الى المجمع اللغوى

★ كيف دخلت الوزارة !

★ عودتى الى الجامعـــة

★ لماذا استقلت من الجامعة

كيف دخلت الوزارة

لما أسند الملك فؤاد الأول الى محمد محمود باشـــا أمر تأليف الوزارة فى يونية سنة ١٩٢٨ دعانى وقتئذ الى الاشتراك معه فى الحكم ، فاعتذرت له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، فقال لى رحمه الله :

ـ وهل يرضيك يا صـــديقى ان تتركنى وحـــدى ؟! ٠ ٠
فمست هذه العبارة شعورى ، وقبلت الاشتراك معه فى الوزارة ٠٠ وكان من حظى ان أتولى وزارة المعـارف ، وهى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف اليه من خدمة الأمة عن طريق العـلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال ، فان التعليم هو الأساس الذى يبنى عليه تحقيق الأطماع القومية ٠ ولو أن العظمة القومية التى تبغيها مصر تنال بالجهل ، وبتفكك الروابط القومية الدالة على عدم التربية ، لكان ذنبا علينا ان نفكر فى حال التعليم والأخلاق عندنا ٠ ولا جدال فى ان العلم ضرورى لتقدمنـــا بل هو

ضرورى لحياتنا الحاضرة ، وانه هو السلاح الوحيد الصالح للانتصار في معترك الحياة للفرد ، والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام هذه المدنيـــة الحديثة • كمـــا ان تربية الأخلاق هي أساس قوة الامم •

وقد قال جوستاف لوبون : « ان الرومانيين في زمن انحطاطهم كانوا أشد ذكاء من أجدادهم الأشـــــداء ، ولكنهم فقدوا الخواص الأخلاقية كالصبر والعزيمة ، والثبات ، والاستعداد لتضحية النفس في سبيل الغاية ، والاحتفاظ باحترام القوانين • تلك الخواص الأخلاقية كانت هي سر عظمة آبائهم الأولين » •

بعد ذلك أعود ، فأقول ان وزارة المعارف حين أسـندت الى ارتحت للعمل فيها لما قدمت • فقد اهتممت أول ما اهتممت بتطبيق اللامركزية ، وقسمنا العمل فيها باعتبار ان الوزير رجل سياسى ، لايشتغل الا بالمشروعات الجديدة وتطبيق سياسة الوزارة ، وليس له معرفة بموظفى الديوان ، فأمرهم ينبغى ان يتعلق بوكيـل الوزارة وشهادات المراقبين •

العودة للجامعـــة

لم أستمر طويلا فى وزارة المعارف ، لأن وزارة محمد محمود باشا لم يزد عمرها عن خمسة عشر شهرا وبضعة أيام اذ تألفت فى ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ واستقالت فى ٢ أكتوبر ســـنة ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرســـون • وقد اعتكفت بين كتبى وأوراقى حتى كانت أوائل ســـنة ١٩٣٠ حين استدعيت للعودة مديرا للجامعـة ، فارتحت لاستئناف نشاطى بين أبنائى شباب الجامعة • وبين زملائى أساتذتهـــا ، واغتبطت كل الاغتباط لأنى أمضيت عهدا غير قصير فى العمل الجامعى ، وألفت

هذه البيئة الجامعية التى تقوم على الاخــلاص للعلم والتضحية فى خدمته ، والاستقلال فى الرأى والفكر والعمل ــ وأقول الاستقلال لأن أساس التعليم الجامعى حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، ولأن التربية الجامعية قوامهــا حرية العمــل والبعد عن التأثيرات الحكومية ، وتأثيرات البيئــات العاميـــة ، وعن تأثيرات البيئــات السياسية المختلفة .

استقالتي من الجامعة

وقد حرصت منذ توليت منصب مدير الجامعة على ان تكون بعيدة عن هذه التأثيرات وان يكون استقلالها محل الاحترام والقداسة • ولكن حدث في مارس سنة ١٩٣٢ ان اعتدت وزارة المعارف على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته بكلية الاداب الى احدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة ، وان لم تكن الوزارة فى ذلك قد جاوزت حدود القانون الجارى العمل به الا انها جاوزت حدود التقاليد الجامعية ، فغضبت لهذا الاعتداء على هذه التقاليد ، وقابلت دولة رئيس الوزراء فى ذلك الحين اسماعيل صدقى باشا ، وشرحت له هذا الموقف الذى يتنافى مع التقاليد الجامعية ، ويسىء الى الجامعة وقلت له ان الجامعة لاتستغنى عن طه حسين • واقترحت عليه تلافيا للضرر ، واحتراما لرأى الوزير حلمى عيسى باشا ، ان يرجع الدكتور طه بك استاذا بكلية الآداب لا عميدا • وقد وافقنى رئيس الوزارة على اقتراحى ، وفى اليوم التالى علمت برفض اقتراحى ، وتنفيذ رأى الوزير • فلم أذهب الى الجامعة ، وحررت استقالتي وبعثت بها الى وزير المعارف العمومية فى هذا الكتاب التالى :

« هليوبوليس ٩ مارس سنة ١٩٣٢ •

« حضرة صاحب المعالى وزير المعارف العمومية » •

« سيدى الوزير •

« أتشرف باخبار معاليكم أنى أسفت لنقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب الى وزارة المعارف ، لأن هذا الأستاذ لا يستطاع

فيما أعلم ان يعوض الآن على الأقل ، لا من جهة الدروس التى يلقيها على الطلبة فى الأدب العربى ومحاضراته العامة للجمهور ، ولا من جهة هذه البيئة التى خلقها حوله وبث فيها روح البحث الأدبى وهدى الى طرائقه . ثم أسفت لأن الدكتور طه حسين أستاذ فى كلية الآداب تنفيذا لعقد تم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف وعلى الأخص لأن نقله على هذه الصورة بدون رضى الجامعة ولا استشارتها كما جرت عليه التقاليد المطردة منذ نشأة الجامعة فيما أعرف ـ كل ذلك يذهب بالسكينة والاطمئنان الضروريين لاجراء الأبحاث العلمية . وهذا بلا شك يفوت على أجل غرض قصدت اليه من خدمة الجامعة .

« من أجل ذلك قصدت يوم الجمعة الماضى الى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، واستعتنته على هذا الحادث الجامعى الخطير ، واقترحت على دولته تلافيا للضرر من ناحيـــة ، واحتراما لقرار الوزير من ناحية أخرى أن يرجع الدكتور طه حسين الى الجامعة أستاذا لا عميدا ، خصوصا أنه هو نفسه ألح على فى أن يتخلى عن العمادة منذ شـهر فلم أقبل ، فتقبل دولة الرئيس هذا الاقتراح بقبول حسن ، وأكد لى انه سيشتغل بهذه المسألة منذ الغد فاشتغل بها الى أن علمت الآن أن اقتراحى غير مقبول وان قرار النقل نافذ بجملته وعلى اطلاقه .

ومن حيث أنى لا أستطيع ان أقر الوزارة على هذا التصرف الذى أخشى أن يكون سنة تذهب بكل الفـــروق بين التعاليم الجامعيـــة وأغيارها ، اتشرف بأن أقدم بهذا الى معاليكم استقالتى من وظيفتى ، أرجو قبولها كما أرجو ان تتقبلوا شـــكرى على ما أبديتم من حسن المجاملة الشخصية مدة اشتراكنا فى العمـــل ، وان تتقبلوا فائـق احترامى » .

ثلاث مخالفات !

هذا هو خطاب استقالتى · وهو يدل على ان وزارة المعارف ارتكبت فى حادث نقل الدكتور طه حسين ثلاث مخالفات : الأولى ـ خاصة باستقلال الجامعة ، والثانية ـ خاصة بمصلحة التعليم الجامعى وحرمانه من هذا الأستاذ النابغ ، والثالثة ـ خاصة بالعقد الذى أبرم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف حين نقلها الى الجامعة الجديدة وقد اشترط فى هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين أستاذا بكلية الآداب ·

قبلت استقالتى · ومكثت بعيدا عن الجامعة حتى أبريل سنة ١٩٣٥ حين جاء نجيب الهلالى باشا وزيرا للمعارف فى وزاره محمد نسيم باشا الثانية ، فجاءنى وطلب الى العودة الى الجامعة ، فاشترطت ان يعدل قانونها بحيث ينص فيه على أنه لا ينقل استاذ منها الا بعد موافقة « مجلس الجامعة » وقد بر نجيب باشا بوعده ، وطلب تعديل القانون ، وعدل فعلا ·

وفى تلك السنة طلبت ان يضم الى الجامعة بعض الكليات فضمت كلية الهندسة ، وكلية التجارة ، وكلية الزراعة ، وكلية الطب البيطرى ·

مكثت مديرا حتى أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٧ · وفى ذلك الحين اشتد الخصام بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لأن الأحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالاخاء الجامعى ، ويسقط قيمة الشمائل الجامعية ، فطلبت من وزارة الداخلية تعيين كونستبلات لحفظ النظام ، لأن البوليس لا يجوز له أن يدخل الحرم الجامعى ، فلم تجب الداخلية طلبى · لذلك استقلت للمرة الثانية ·

بعد ثلاثة أشهر ــ أى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة ــ تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى • وقد اشتركت فيها جميع الهيئات السياسية ما عدا الوفد ، والهيئة السعدية ، وكنت وزير دولة فى هذه الوزارة ، ثم أجريت الانتخابات ، وكلف محمد محمود باشا مرة ثانية بتأليف الوزارة ، فكنت بها أيضا وزير دولة ، ثم وزيرا للداخلية بضعة أشهر • ثم ظهر لى ان المصلحة السياسية تقضى باشتراك الهيئة السعدية فى الوزارة ، فعرضت هذا العرض على خشبة باشا ، وأصررت على أن أخرج من الوزارة لأفسح الطريق لغيرى من السعديين •

ودعت الجامعة سنة ١٩٤١

وبعد ذلك بقليل زارنى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وطلب الى الرجوع الى الجامعة ، فاعتذرت ، ثم جاءنى مرة ثانية من قبل محمد محمود باشا ، وألح على ورجانى أن أضع شروطى ، فقلت •

ــ لا شروط لى الا أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة ، لأن اتصالهم بهم كان يفضى دائما ــ كما ذكرت ــ الى فقدان الاخاء الجامعى بينهم • وذلك من أضر الأشياء على التربية الجامعية •

فأجابونى لطلبى ، وقبلت الرجوع الى الجامعة • ولكن لم يمض قليل حتى أخبرنى أحد الوزراء أن الطلبة متصلون بوزراء الأحرار الدستوريين فقدمت استقالتى لمحمد محمود باشا ، فاعتذر ، وأكد لى أنه لا يعلم ذلك وأنه سيصدر أمرا مشددا بعدم اتصال الطلبة بالوزراء لأغراض سياسية فبقيت فى الجامعة الى سنة ١٩٤١

اذ عرض على رئيس الحكومة وقتئذ حسين سرى باشا أن أكون عضوا في مجلس الشيوخ ، فقبلت ذلك ، لأنى أحسست بأنى محتاج الى الراحة بعض الشيء من أعمال الجامعة بعد أن خدمتها فى عهدها القديم وعهدها الجديد زمنا طويلا . ثم توليت بعد ذلك رياسة « مجمع اللغة العربية » ومكثت فيه مع رجال أحبهم وهم رجال اللغة والعلم والأدب .

الفصل الخامس عشر

الأخـــلاق

وكيف ينبغى أن تكون

لتحقيق ســلام عالمى

- ★ التعاون فى سبيل السلام
- ★ هل الحرب طبيعية ؟
- ★ أدب السياسة الدولية
- ★ يجب القضاء على الاستعمار

التعاون فى سبيل السلام

التعاون العام بين أمم العالم موجودة على وجه متقطع وكيفما أن يكون · ليس خاضعا لنظام معين · غير أن هذا ليس هو التعاون الذى يقصد اليه ميثاق الاطلنطى بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذى يمنع الاعتداء ويؤدى الى السلام الدائم ·

بادىء بدء لا ينبغى أن نخدع أنفسنا فيما يعترض هذا التعاون من صعوبات أعسرها تذليلا هو الايمـان به · فاذا نحن تشبثنا بسنن الماضى وما ألفناه من أخلاق الناس على العموم وأخـلاق قادة

---

(١) أردنا أن نختتم هذه القصة التاريخية التى أملاها استاذ الجيل احمد لطفى السيد على رئيس التحرير بهذه المحاضرة القيمة التى ألقاها سيادته فى قاعة بورت بالجامعة الامريكية فى مساء الجمعة ٢٩ يناير سنة ١٩٤٣ ·

الشعوب على الخصوص ، وما سجل التاريخ من ألاعيب السياسة وغدرها وقدرنا قوة أنصار الحرب والعاملين عليها والمنتفعين من ورائها ويئسنا من أن نقطع الصلة بين ماضى الانسانية وبين مستقبلها فى هذا الصدد ، فما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه التعاون الذى ندعو اليه بنظام جمعية الأمم الماضية • ولا يرى أنصار الاعتداء على كل هذه الجلية الا أنها صلف تحت الراعدة •

أما اذا رجونا الخير وقدرنا ما نحن فيه اليوم من الضرورات الاجتماعية والحرج السياسى وقدرنا أن العالم أصبح لا يطيق بعد الآن حروبا على غرار الحرب الحاضرة ، وقدرنا حق قدره الارتقاء الاجتماعى فى العالم ، ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجربة القاسية للأخطاء الماضية ستنفع العالم فى تسديد خطاه الى الخير ، متى قدرنا كل ذلك وجب أن نتقبل مشروع التعاون المانع من الاعتداء والمفضى الى السلام الدائم بغاية الارتياح وآمنا به وعملنا على تحقيق وسائله • فلقد آن لضمير العالم أن ينتبه ويجعل الاخاء الانسانى حقيقة واقعة بعد أن لم يكن الى الآن الا لفظا ليس له ما يدل عليه •

الواقع من أمر الناس فى الأمم المختلفة وفى المدنيات المتعاقبه أنهم بوازع من قانون الأخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة ، وبوازع من سلطان البوليس والقضاء ، وقد اعتادوا أن يتعاونوا فى معيشاتهم المدنية بالحسنى وتركوا عاداتهم الأولى فى العدوان والجرى على أحكام « حق الأقوى » التى ألفوها أزمانا طوالا فيما قبل المدنيات المنظمة • هذا هو حال أفراد الناس الآن فى الأمم المتمدنة ، منازعاتهم يفصل فيها القضاء ويزع سلطان البوليس بعضهم عن الاعتداء على بعض ، فأصبحوا يرون جريمة داعية الى الاحتقار ومستحقة للعقاب

ما كانوا فى حال البداوة يتمدحون به ويجعلونه مناطا للعزة ومجلبة للشرف والفخار ٠

اذا ليس الظلم والعنف فى الناس أمرا طبعيا لامناص منه كما قد يظن ، انما كان ذلك فيهم قبل نظام الدول عادة اعتادها آلافا لا تحصى من السنين ، كان الأفراد فى كل لحظة محلا لافتراس السباع ٠ اقتضاهم ذلك أن تكون حياتهم فى حرب متصلة ودفاع مستمر ٠ فلما اطمأنوا من هذة الناحية استمرت عادة الهجوم والدفاع فى أنفسهم غير أنها تحولت الى أن تكون حربا بينهم حتى قضت عليها المدنية المنظمة بالبوليس والقضاء ٠

تلك حال الأفراد ٠ وأما حال الأمم أو بالأولى حال الحكومات فلم تجد كما وجد الأفراد تحت ضغط الضرورات الاجتماعية قانونا للأخلاق ولا محاكم تفض النزاع بينها ولا بوليسا يمنع الحكومات من اعتداء بعضها على بعض ٠ بقى فيها روح الفرد الأولى ٠ روح القبيلة ، روح الاعتداء على الغير استعلاء عليه واستعبادا له وطمعا فى أرضه ومرافقه ٠ وبالجملة بقيت كل حكومة حتى فى هذه المدنية الحاضرة تضمر أن تنتزع بالقوة من أمة أخرى مالها من المرافق من غير وازع ولا حياء ٠ واذا فقد ظفرنا من المدنيات القديمة بأدب للأفراد ولم نظفر بأدب لحكوماتها يمنعها من الاعتداء والطغيان ٠

هل الحرب طبيعية ؟

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع أنها استوعبت بحث الأشياء الانسانية لم تتعرض ولا عن طريق التخيل الى امكان القضاء على الحرب بين الأمم ولم تفكر فى تحقيق الاخاء الانسانى العام ولا فى السلام الدائم ٠ بل لعلها شجعت الحرب تارة وقست فى نتائجها تارة أخرى ٠ كذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية لم يكن

فيهما نظرة فى ذلك الاخاء بين الأمم المختلفة كما نظرت كلتاهما فى الاخاء بين أفراد الأمة الواحدة الا ما سموه « السلم الرومانى » . ومن الخير ألا نتعرض لذكره ، لأنه لا يفيد شيئا فى موضوع التعاون العالمى المنشود .

فأما الحرب من طبع الانسان فتلك فكرة انتزعها كتاب وفلاسفة مما هو الواقع . ومن طريف ما يؤثر عن أنصـــار الحرب ما نقله ايميل فاجى عن أحد التيازفة أو الصوفية القائلين بوحدة الوجود قال « الحرب الاهية فى ذاتها لأنها قانون العالم » . « الحرب الاهية فى المجد الخفى الذى يحيط بها وفى الجاذبيـــة الخفية أيضـا التى تجذبنا اليها » . « الحرب الاهية فى الحماية لموهوبة للقواد العظام » .. الى أن قال » الحرب الاهية بنتائجهـا التى تعزب عن تقديرات الناس » . قال أميـــل فاجى كل هذه الجمـل تساوى انه يقول : « الحرب الاهية لأنها سخيفة » .

وبالجملة فان أهم دليل على طبيعتها هو قدمهـا . والدم من حيث هو لا يصحح فاسدا ولا يفسد صحيحا . والذى يراه أنصار السلام هو أن الحرب ليست من طبع الانسان كالعـائلة والأبـوة والعمل ، بل هى عادة تأصلت فى نفوس الناس يمكن القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التى لا شك فى أن العالم يتقدم فى أمرها بنسبة ضميره على أثر تفكير المفكرين فيما يصـــلح حال الانسان .

اذن كان لابد من ثورة على القديم فى هذه الناحيـــة أيضا . وقد كانت هذه الثورة أول خاطر فى موضوع السلام الدائم خطر لسوللى وزير هنرى الرابع . ولكن ســـلامه الدائم لو أنه تحقق لما شمل الا أوربا فقط . وكذلك كان مشروع الأب سان بير فى أوائل

القرن الثامن عشر • ولم تكن تلك الا بوادر لم تفد شيئا • حتى كان آخر القرن الثامن عشر اذ انبعث صوت الاخاء الانسانى من جامعة كونجسبرج حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها ايمانويل كنت انشاء حكومة أمم تمنع اعتداء بعضها على بعض • وجه نداء للأمم والملوك قال فيه « ينبغى أن تنظم الأمم سلوكها فى كل دولة على قواعد الأخلاق والقانون ، كما يجب على الدول أن ترعى هذه القواعد المتبادلة مهما يكن من تمويه الاعتراضات التى تستنتجها السياسة من التجربة • وحينئذ لا تستطيع السياسة الحقة أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تتبع فيها أوامر على الأخلاق • فان السياسة متى اتحدت بعلم الأخلاق ، لم تعد بعد ذلك فنا صعبا ولا معقدا •

ان الأدب يفك العقدة التى لا تستطيع السياسة حلها • يجب اعتبار حقوق الانسان مقدسة ولو ضحى فى ذلك الملوك بأكبر الضحايا • لا يمكن فى هذا الصدد التنازع بين الحق وبين المنفعة • وان السياسة يجب أن تركع أمام الأدب •

لكن هل استمع لهذا النداء الكريم الملوك والحكومات ، نعم أظن أن حكومات الأمم الكبرى التى اجتمعت فى مؤتمر فينا بعد هذا النداء بتسعة عشر عاما قد استمعت لهذا النداء ، لكن لا تفعل به حقيقة ، بل لتخدع به الرأى العام للشعوب الوادعة الطيبة التى قلما تحتمل نصيبا من اجرام حكوماتها • وهاكم مذكرة الوزير جنز زميل مترنيخ رئيس المؤتمر المؤرخة فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٥ •

« ان أولئك الذين اجتمعوا فى المؤتمر وكانوا يعلمون حق العلم طبيعته وأغراضه لا يكادون يخدعون على تطوره أيا كان رأيهم فى نتائجه • ان الكلمات الفخمة مثل « اعادة النظام الاجتماعى » و « تجديد المذهب السياسى لأوروبا » و « السلام الدائم المؤسس على توزيع للسلطان » الخ •• انما نطق بها لتطمين الناس ولتفيض على

هذا الاجتماع الحافل كرامة وعظمة . لكن الغرض الحقيقى للمؤتمر ، قد كان توزيع أسلاب المقهورين بين القاهرين » .

أدب السياسة الدولية

هذا نموذج من أدب السياسة الدولية يتخذه الساسة لمجدهم ومجد ملوكهم وليلقوا به دروسا فى الشر والظلم على الناس أجمعين. أفكان الذين اجتمعوا حول مائدة الصلح فى فرساى أصلح نية وأصدق قولا من زملائهم فى فينا من قبلهم بقرن كامل ؟ لقد كان كتاب التاريخ السياسى يظنون أن مؤتمر فينا قد أخفق فى مهمته مع أنه وقى العالم شر الحروب ٣٩ سنة .

فهل كان مؤتمر فرساى أسعد حظا وأجدى على الانسانية نفعا ، مع أن سلامة لم يزد عمره على العشرين عاما حتى أمكن لأحد الساسة فى الخريف الماضى أن يجمع بين الحرب ويسميها حرب الثلاثين من سنة ١٤ الى سنة ٤٤ . واذا لم يتغير الأدب السياسى عما كان فى القرن الماضى . قال الكاتب المعروف « الدس هكسلى » عشية هذه الحرب الحاضرة « ان أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان . أدب الخداع . أدب الشيخ الفيكونت الفاست ، بل لم يتغير هذا الأدب منذ عشرين قرنا حين قال الفيلسوف سنيك : هذا هو قانون الانسانية : كل ما هو محرم عليك اتيانه وأنت فرد ، مطلوب منك اتيانه وأنت مدافع عن الدولة .

ترون من ذلك أن للأفراد أدبا جاءت به قوانين الاجتماع داخل كل بلد . فأين أدب السياسة والسياسيين ، والى أى شىء مرده ، الى محكمة الضمير وقد جرى العرف على أن السياسة لا ضمير لها ، أم الى محكمة القانون العام وليس للسياسة الدولية محكمة الا الحرب. قال برتلمى سانتهلير لمناسبة نداء كنت :

« لقد أعلن كنت هذه المبـــادىء القديمـة منذ ستين عاما . ولكننا على رغم ما قطعت الأفكار العامة من مراحل التقدم فى هذه المدة ، ما أبعدنا الى الآن عن الغرض الذى ترمى اليه حكمة الفيلسوف . والظاهر أن الملوك والأمم لم تتلق بعد دروسا قاسية .

نظن الآن أن العـــالم قد تلقى هذه الدروس القاســية منذ الحرب الماضية فشرع فعلا فى انشاء جمعية الأمم . لكنها لم تنجح لأنه عند تنفيذها كان الساسة قد نسوا ويلات الحرب ورجعوا الى اخلاق السياسة الدولية فلم تنجح تجربتها وجاءت الحرب الحاضرة بويلاتها التى لا تطاق ، تلقاء هذه التجربة القاســـية صدر ميثاق الأطلنطى فى أغسطس سنة ١٩٤١ .

وهنا يتساءل أنصار السلام : هل انشاء عصبة أمم جديدة خير من عصبة الأمم القديمة يمكن أن يوصل الى الغاية النبيلة التى أشار اليها المستر ايدن بقوله : « ان غايتنا هى انشاء نظام عالمى يحقق التقدم السلمى لجميع الشعوب » .

العقل والتجربة متفقان على أن نظام عصبة الأمم التى لها قوة مســلحة لتنفيذ قراراتها ليس خير أداة للســلام الدائم وبالتبع للتعاون العالمى . لأن هذه الأداة متى كمل نظامها كانت كما يقول المستر ألدس هكسلى « كأنها عصبة مؤلفة للحرب لا للسلام » والواقع أن العنف يولد العنف . ومع ذلك ليس أمام العمليين من أنصـــار السلام وسيلة سواها فى الحال الراهنة .

غير أن هذه الوسيلة لا توصل الى الغاية الا اذا اقترن بهـــا أبطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه . على هذا الوضع يمكن أن تستل من نفوس الأمم الصغيرة تلك الأحقاد التى ولدها استعلاء قوم على قوم . وذلك هو أفسد ما يكون للأخلاق التى ينبغى أن تتخلق

بها الأمم لتحقيق تعـــاون عالمى . وفى هذه الحالة الشعوب التى لا تستطيع أن تقوم بنفسها لا تتبع ادارة النظام العالمى الذى أشار اليه وزير الخارجية البريطانية تأخذ هذه الادارة بيدها حتى تستكمل مشخصات الأمم التى تستطيع أن تكون عضوا مستقلا نافعـــا فى التعاون العالمى .

يجب القضاء على الاستعمار

ما دام غرض التعاون العالمى هو القضاء على نظرية حق الأقوى مع فسادها فى نظر المنطق القانونى ، وما دام الاستعمار هو أظهر آثار حق الأقوى ، فلا بد للتعاون العالمى من القضـــاء عليه بجميع أســـمائه .

كما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام الدائم كما ذكرت آنفا . كذلك هى لم تتعرض لفكرة استنكار الاســـتعمار . وأول من تعرض لها من الفلاسفة على وجه بين هو الفيلسوف بنتام ، فانه هو وأنصار مذهبه يبغضون الاستعمار ويرونه غير نافع للأمم المستعمرة ، فوق أنه مفسد لأخلاق الأمم المستعمرة . قال برتران رسل : « اذ كانت الثورة الفرنسية فى الصميم من أمرها ، كتب بنتام رسالة الى تالران عنوانها « حرروا مستعمراتكم » .. ولم يكن ذلك رأيه فى المستعمرات الفرنســية فحسب بـل رأيه كذلك فى المستعمرات البريطانية . وأنه حمل صديقه اللورد لندون على اعتناق مذهبه فقال فى مجلس اللوردات فى سنة ١٧٩٧ « لايمكن أن يسدى الى أسبانيا خير ، أفضل من تخليصها من لعنة مستعمراتها » .

وأخيرا فى عهد جمعية الأمم السابقة عرض على الأمم المستعمرة فى فرض عدة أن تنزل عن مستعمراتها لتضعها تحت الســيادة الدولية فرفضت كلها بلا استثناء . غير أنه ما دام على ظهرها أمم

غالبة وأمم مغلوبة ، فلا رجاء فى التعاون باخلاص • وكأنى بالأمم المغلوبة على أمرها تقول للقاهرين دعاة السلام : أنظرونا نتحلل من ذل التبعية ثم شأنكم والسلام الدائم قرروا فيه ما تشاءون •

بقى أن نشير الى أن بعض الكتـــاب الســـياسيين يرون أن الاستعمار والوطنية أمران متلازمان ، وأن من العسير أن يحب قوم وطنهــم دون أن يقترن هذا الحب بالاســـتعلاء على الأمم الضعيفــة أو دون أن يبغضوا غيرهم • هذا قد يكون حقا فى أمر الوطنيـــه الحادة الجامحة التى هى من سلالة عصبية القبيلة • أما الوطنيـــة المدنية أو وطنية المستقبل التى يسيطر عليها التدبر العقلى فانهــا لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء • والواقع اننا نرى الرجل الفاضل مع حبه لنفسه يسعى الى سعادة غيره فلا مانع اذا يمنع قوما يحبون وطنهم ، من أن يسعوا فى اسعاد الأوطان الأخرى •

التعاون العالمى ممكن

— أيها السادة : نسوق كل هذه المقدمات للوصول الى نتيجتين:
الأولى : أن التعاون العالمى ممكن متى اقترن به الغاء الاستعمار على الوجه الذى ذكرناه •

الثانية : أن أدب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف الى الآن بعيد عليه أن يحقق التعاون العالمى • بل لا بد لهذا التعاون من أدب دولى جديد •

ونظرا لأن أسباب الحروب مهما اختلفت مردها كلها الى الحالة البسيكولوجية للأمم وعلى الخصوص الحالة الأخلاقية لقادة الأمم • نظرا الى ذلك قد بحث أنصار السلام فى الوسائل التى تؤدى الى منع الاعتداء من جانب أمة على أخرى • وان أوفى بحث أعرفه فى هذا

الصدد تلك المحاولة الجريئة الموفقة التى حاولها الكاتب المعروف الدس هكسلى فى كتابه « الغاية والوسائل » · لم يقنع هكسلى بطريقة « كنت » التى لا يزال الساسة يسيرون عليها سواء أكان ذلك فى جمعية الأمم السابقة أم فى النظام العالمى المستقبل ، بل هو يرمى الى أعمق من ذلك أثرا وأبقى على الزمان بقاء · وهو أن يسعى الأفراد والجماعات والحكومات الى تربية الجيل على صورة تتدرج نتائجها للوصول الى الانسان المثالى · جعل هكسلى هذا المثل الأعلى فى الانسان الذى سماه « الانسان اللا مرتبط » فى ذلك الانسان غير المرتبط باحساساته ورغباته الجسمية غير المرتبط بشهوته فى السلطة والحيازات المختلفة · غير مرتبط بموضوعات هذه الرغبات المختلفة ، غير مرتبط بغضبه وحقده ، غير مرتبط بحياته الخاصة ، غير مرتبط بالثروة ولا بالمجد ولا بالوضع الاجتماعى ، غير مرتبط حتى بالعلم وبالفن وبالتأمل المجرد وبحب الانسانية · بذلك يصل المرء الى حيازة جميع الفضائل · وأن عالما مؤلفا كله أو جله أو على الأقل قادته من أفراد لهم هذه الفضائل ، لجدير بأن يسمى العالم الكامل · غير أن هكسلى لم يخدع نفسه على امكان الوصول الى تلك الوسائل التى تربط نظريات السياسة الداخلية والسياسة الدولية والحرب والاقتصاد والتربية والدين والأدب كل أولئك بنظرية الطبيعة الآخرة للحقيقة · بل قال فى آخر كتابه · « لاشك أن هذه المهمة قد نفذت على وجه ناقص · على أنى لا أعتذر عن محاولتى اياها فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلى ·

ونحن من جانبنا نترك الى الزمان الطويل تحقيق الرغبات الشريفة لهذا المؤلف ، ونقبل على مذهب أقرب تناولا ونقنع بالهدف الحاضر وهو التعاون العالمى الذى ارتضته السياسة الدولية للأمم المتحدة · فماذا ينبغى أن تكون الأخلاق لتحقيق هذا التعاون ·

اذا كان هكسلى يعتد هكذا بسمو النفس الانسانية فى طبيعتها الى حد أنه يرى من الممكن أن تتحقق نظرياته ، فليس فى ذلك الا قريبا جدا من رأى الفيلسوف « كنت » فى سمو الطبيعه الانسانية حين يقول : « ليس فى الاستعدادات الطبيعية للانسان شيء من مبدأ للشر • وأن السبب الوحيد للشر هو ألا يرد الطبع الى قواعد • الا أن الانسان ليس فيه من أصل الا للخير • ليس لهذا المعنى فقط أرى أن أختار منهاج « كنت » مرجعا لصورة هذا البحث الذى أبحثه • بل أيضا لأنه صاحب فكرة الحكومة الدولية العامة • وبهذه المثابة قد يكون منهاجه الأخلاقى أقرب المناهج نسبا للتعاون العالمى • وقد يكون فوق ذلك هو المناسب لاعتقادات الناس فى هذا الزمان •

لتحقيق التعاون العالمى ينبغى أن تقوم كل أمة بواجباتها نحو ذاتها وواجباتها نحو الأمم الأخرى •

فأما فضائلها الذاتية أو واجباتها نحو ذاتها فالقيام بها أظهر ما يكون فى التربية وفى صور الحكم •

أما التربية فانها فى كل العصور وسيلة لتحقيق غاية معينة • فترون الدكتاتوريات تنشىء أجيالها تنشئة اسبرطية محضة لأن غايتها استكمال ما تستطيع من قوة لتبسط سلطانها على العالم كله أو بعضه • فتجردهم من حرية التفكير الشخصى وحرية النقد وحرية الاجتماع لتبادل الآراء وتنمى فى أنفسهم مبادىء القومية الحادة والاستهانة بحقوق الغير والطاعة العمياء • وبالجملة تكون غاية التربية غاية حربية صرفة أو بعبارة أدق غاية الاعتداء على الاغيار وما فى أيديهم • وليست الديمقراطيات مع الأسف بأحسن حالا من ذلك الا قليلا • فان التربية فيها مع ما بها من الحريات الفردية

موجهة الى الحرب أيضا • وفى مثلها العليا نماذج من أبطال الحروب الأولين والآخرين • فمناط المثل الأعلى فى التربيـة الحاضرة بطل قتل فى ساحة الحرب من اخوانه فى الانسانية أكبر عدد ممكن • لا شك فى أن هذه التربية لا يمكن أن تكون غايتها التعاون العام أو السلام الدائم • بل لابد للعالم ، وقد اعتزم التعاون العام ، أن يغير غاية التربية ، فيستن نوعا من التربية يؤدى الى حب السلام لا الى حب الحرب • يؤدى الى تحقيق الاخاء الانسانى • يؤدى الى ترك المبالغة فى الاعتزاز بالأجناس وترتيبها ترتيبا تحكميا عسى أن يكون الجنس الأخير منها خيرا من الجنس الأول المزعوم • وبالجملة ينبغى أن تترك الى جانب عصبية الانسان الأولى للقبيلة ولمعبودها المحلى الذى صنعه الانسان بيده ، الى ما يقتضيه الاخاء الانســـانى والتعاون العالمى من احترام لجميع الأجناس وسعى فى اسعاد من قضت عليه المصادفات الشقية بأن يكون فى سلم المدنية متأخـرا عن ســـواه •

الانسان المثقف

على هذا يجب على الأمة فى تربية أبنائها أن تكون غايتهـــا « الانسان المثقف » ووسيلتها الى ذلك :

١ ـ تثقيف ملكات الفرد الطبيعية : ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقتناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف ، بل ينفق بالمعـروف • وواجب كرامته من حيث هو انسان فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها

قوانين مرعية الأداء وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتي من عمل • وضابط ذلك كلمة أفلاطون المعروفة « تعرف نفسك بنفسك » أن تعرفها بالدرس الدائم لحالها وسبر غورها فى أعمق طياتها • ثم ينبغى أن يؤخذ الناشىء بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون • قال « كنت » : من ليس مثقفا فهو بهيمة • ومن ليس مؤدبا فهو متوحش •

٢ ــ كذلك ينبغي أن تؤخذ الأفراد فى التربية بتعلم القيام بواجباتهم نحو الغير ، مثل حب الانسانية ويعنى به العدل ورعاية الغير وعرفان الجميل والسخاء والمواساة فى الضراء واحترام الأغيار فى أشخاصهم وشرفهم وأموالهم واحترام قوانين البلاد سرا وعلانية • وينبغى فى تثقيف هذه الثلاثة الأنواع من الملكات الطبيعية أن يكون ذلك على يد أساتذة أحرار فى مدارس حرة ليست تابعة مباشرة لسياسة الحكم كلما أمكن ذلك •

وأما واجبات الأمة من حيث صورة الحكم لتكميل ذاتها فينبغى أن تكون الأمة دائما مصدر السلطات فى وطنها وأن يشترك أفرادها فى حكمها على الطرق الديمقراطية وأن يكون الحكم فيها لمنفعة المحكومين لا لمنفعة الحكام • وأن تكون ولايات الحكم ضرائب يؤديها الأكفاء من أبنائها لا مزايا يختص بها المقربون من السلطات • ويتفرع على ذلك أن طالب التولية لا يولى •

هذا ما ينبغى من فضائل الأمة أو واجباتها نحو ذاتها •

وأما واجبات الأمم بعضها نحو بعض ، فأول ما ينبغى هو ابطال هذا المذهب العتيق للسياسة الدولية مذهب الارتياب والدسائس والتجسس . وأن يستبدل به نقيضه بأن تحل محل هذا المذهب الواجبات الأدبية التى يفرضها قانون الاخلاق على الفرد نحو غيره ، وهى تتلخص فى احترام حقوق الغير والسعى فى اسعاده .

على هذا النحو وعلى هذا النحو وحده يتحقق التعاون العالمى ، وتشمل نعمة السلام كل بنى الانسان .

فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧١٣ / ١٩٩٣

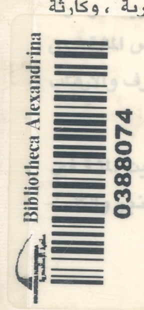
ISBN — 977 — 01 — 3391 — 4

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فأختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستنير الحق الشريفة .



بسعر رمزى
خمسة وعشرون قرشاً

الغلاف للفنان : محمود الهندى